808.1:H96haA c.2

حسين، طه.

حافظ وشوقي.

808.1
H96haA
c 2

JAFET LIB.

8 MAY 1982

6 May 87

10 FEB 1966

23 FEB 1976

13 DEC 1968

1 OCT 1974

14 Jun 69

1 Jun 70

14 FEB 1972

JAFET LIB.

808.1
H96haA
C.2

حَافِظ وَشَوْقِي

لطفي حسين

892.7109
Ha3924h2A

الطبعة الثانية

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة

ص . ب ١٣٧٥

مطبعة دار الجهاد

١٤ شارع ابراهيم بالقاهرة

Cat. 17 Arch. '53

فهرس

صفحة

الأدب الجديد ٦
مقدمات ١٠
المثل الأعلى ١٩
فى الذوق الأدبى ٢٨
شعراؤهم ٤٥
بودلير (الحرية والفن) ٥٤
النثر العربى فى نصف قرن ٦٣
البؤساء ٨٤
الشعر الشوقية الجديدة ٩٣
النظم . قصيدة حافظ الأخيرة ١٠٤
شعراؤنا ومترجم أرستطاليس ١١٥
الرثاء فى شعر حافظ ١٥٢
حافظ وشوقى ١٧٥

مقدمة

إذا أذن الكاتب لنفسه أن يتحدث الى الناس، أو وجد الكاتب من نفسه الشجاعة على أن يتحدث اليهم: فمن الحق عليه لآرائه التي يذيعها، وخواطره التي يقيدها أن تصل هذه الآراء والخواطر الى أضخم عدد ممكن من القراء، لا في الوقت الذي تكتب فيه فحسب، بل فيه وفيما يليه من الأوقات.

فلست أدري لم أذيع الرأي في ألف ولا أذيعه في آلاف؟ ولست أدري لم أعلن الرأي في بيئة دون بيئة، وأقدمه الى جيل دون جيل؟ ولاسيما اذا مضت الأيام، وتعاقبت الأعوام وأنا مقيم على هذا الرأي. لم أتحول عنه ولم أستبدل به رأياً آخر.

واذا كنت أرى أن هذا الرأي حق، أو أن فيه خيراً قليلا أو كثيراً فقد يصبح حقاً عليَّ للناس أن أطالعهم بهذا الرأي، وأن أظهرهم عليه لأن أول ما يجب على الكاتب أن يؤثر الناس بالخير ويختصهم بما يعتقد أن فيه لهم نفعاً. واذاً فلن أتردد في اذاعة هذه الفصول التي نشرت في صحف مختلفة، وفي أوقات مختلفة، وفي ظروف متباينة. نشر بعضها في

السياسة ، وبعضها فى الجديد ، وبعضها فى المقتطف ، وبعضها فى الهلال . ونشر أقدمها منذ عشر سنين وأحدثها فى السنة الماضية ، ونشر بعضها وأنا أجاهد الشعراء وأخاصمهم ، ونشر بعضها الآخر بعد أن استأثر الله بشاعرينا العظيمين حافظ وشوقى ، فبطل الجهاد وزالت الخصومة ، ولم يبق لهما فى نفسى إلا المودة والذكرى والميل الى الانصاف .

لن أتردد فى جمع هذه الفصول واذاعتها بين الناس فى كتاب ، وان كانت قد نشرت ، وان كان من الكتاب من يضيق بمثل هذه الأسفار ، التى يجمع فيها أصحابها ما نشروا من فصول ، ويرى أن هذا النوع من الكتب أشبه بالحديث المعاد .

ذلك لأن هذه الفصول التى نجمعها بعد أن نشرناها متفرقة لم تصل الى الناس جميعاً ، أو الى أكثر من ينبغى أن تصل اليهم فليس كل الناس يقرأ كل الصحف والمجلات ، وليس كل المثقفين يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات ، ومن المحقق أننا نذيع الفصل اليوم فيقرأه فلان ، ولا يقرأه فلان : لأنه جهله أولا لأنه صرف عنه لسبب من الأسباب . فاذا بعد العهد بهذا الفصل نسيه من قرأه ، ومضى فى جهله من لم يقرأه . ولم تشعر بوجوده هذه الأجيال الناشئة من الشباب

الذين يفتحون عقولهم وقلوبهم للعلم والأدب والفن فى كل عام . ومن المحقق أن الفصول التى نشرت منذ عشر سنين فقرأها المثقفون والمستنيرون يومئذ ، ثم ظلت فى الصحف مقبورة تنتظر أن تبعث أو أن يظفر بها مصادفة بعض المنقبين . من المحقق أن هذه الفصول مجهولة الآن جهلا تاما من المثقفين والمستنيرين الذين يقرأون الآن ، والذين كانوا فى طور الصبا حين كانت هذه الفصول تكتب وتذاع . فمن الحق على الكاتب لنفسه ومن الحق عليه لهذه الأجيال الناشئة أن يجمع لهم هذه الفصول ، وأن يذيعها فيهم إذا كان لا يزال يرى ألاَّ بأس باذاعتها وإظهار الناس عليها . كذلك يفعل الكتّاب والنقاد خاصة فى كل بلد وفى كل جيل . وأين كنا نظفر بنقد سانت بوف Sainte Beuve وجول لومتر jules Lemaitre وأناتول فرانس Anatole Francee لو لم يجمعوا لنا هذه الفصول البارعة التى ملؤا بها الصحف والمجلات فى نقد الآثار الأدبية القديمة والحديثة . وكثير من هؤلاء النقاد لا يعرفون الآن إلا بهذه الفصول التى نشروها متفرقة أول الأمر ، ثم جمعوها أسفاراً أو جمعت لهم بعد ذلك .

وقد قرأت هذه الفصول بعد وفاة حافظ وشوقى

رحمهما الله، فرأيت أنى ما زلت الآن عند الآراء التى أذعتها فيها على مضى الوقت واختلاف الظروف، فلم أر بأساً من أن أجمعها وأعيد اذاعتها مستعداً أحسن الاستعداد للنضال عنها والذود دونها والرجوع عن بعضها إن تفضل بعض النقاد فأظهرنى على أن فيها جوراً عن القصد أو انحرافاً عن الحق.

واذا كان الذين قرأوا هذه الفصول متفرقة يزهدون فى قراءتها مجتمعة، فانى أهدى هذه الفصول الى شبابنا الذين لم يقرأوها أو لم يقرأوا أكثرها، وأرجو أن يجدوا فى قراءتها ما قصدت اليه حين كتبتها وحين جمعتها من إثارة الميل القومى الى درس الأدب والعناية به وتقوية الذوق الفنى وتوجيهه هذا الوجه الجديد الذى يلائم حياتنا وآمالنا ومثلنا العليا فى هذا العصر الذى نعيش فيه.

طه حسين

القاهرة ٥ مارس ١٩٣٣

الأدب الجديد

لم تظهر حاجة الأدب إلى النظام فى يوم من أيام هذا العصر الحديث ظهورها الآن ، فقد كان الأدب العربى أول هذا العصر مطمئناً إلى حظه راضياً بحاله . مؤمناً بأنه يرضى حاجة الناس إلى الجمال الفنى فى الكلام ، قانعاً أيضاً بما كان بينه وبين الأدب العربى المنحط من صلة ، مقتنعاً بأن هذا الأدب العربى المنحط أرقى أنواع الأدب وأدناها إلى المثل الأعلى للجمال الفنى البيانى.

وكان الكتاب والشعراء - أول القرن الماضى وأثناءه - يرون أنهم قد أدوا ماعليهم من حق البيان إذا أداروا هذه الجمل والألفاظ التى كانوا يديرونها على نحو من البديع مألوف ، فيه جناس وطباق ، وفيه استعارة ومجاز ، وفيه إشارة ورمز إلى أنحاء من المعنى تخطر لهم ، وقلّ أن تخطر لغيرهم من الناس . وكان الناس يطمئنون إلى هذا النحو من الأدب تقبل عليه الخاصة وتنصرف عنه العامة إلى أزجالها ومواويلها ، والى قصصها وأحاديثها . وكانت الحياة الغربية الجديدة تتخلص الى مصر وسوريا فى شىء من الرفق والدعة حيناً ، وفى شىء من العنف والشدة حيناً آخر . وماهى الا أن اجتهد هذا القرن التاسع عشر

حتى كانت الحياة الغربية قد وصلت الى طائفة من الناس فأثرت بعض التأثير فى عقولهم ، وعجزت عن أن تؤثر فى شعورهم وعواطفهم ؛ فكانت حياة عقلية فيها شيء من الجدّة ، وفيها ميل الى الخروج على القديم . وكان اندفاع يختلف قوة وضعفاً الى العلم باختلاف الظروف وأطوار الحياة الفردية والاجتماعية ، وأنشئت مدارس وظهرت صحف وترجمت كتب ، ولكن الأدب ظل كما هو قديماً أو متين الاتصال بالقديم . وظلت لغة الشعر والنثر كما كانت ، قريبة الى العامية ، متأثرة بفنون البيان والبديع ؛ حين تحاول البعد عن هذه اللغة العامية ، بينما كان الطب وغيره من العلوم والفنون الحديثة يتطور مسرعا الى التجديد.

ولكن المطبعة أخذت فى هذا العصر تحدث فى مصر والشرق أثراً كالذى أحدثته فى أوروبا إبان النهضة الأوروبية منذ قرون ، فظهرت كتب قديمة فى الدين والأدب واللغة والنحو وما إليها ، وعرف الناس أن حظ اللغة العربية من إنتاج العقل والشعور والبحث والانفعال أكثر مما كانوا يظنون ، وأن وراء هذه الكتب الجامدة المعدودة - التى كانوا يستظهرونها فى الأزهر - كتباً أخرى كثيرة ، فيها حياة وقوة ، وفيها جمال عقلى وفنى لم يكن لهم به عهد من قبل . فأخذوا

يقرأون، وما هى إلا أن تأثروا بما كانوا يقرأون، وما هى إلا أن ظهرت آثار هذه القراءة فى طريقتين متوازيتين ولكنهما على ذلك مختلفتان، ظهرت هذه الآثار فى الأزهر حين عرفت الكتب القديمة فى اللغة والدين، وفى التفسير والحديث، والكلام والفلسفة بنوع خاص. فاضطرب إيمان الأزهريين بالكتب القائمة والعلم المألوف، وأخذوا فى ثورة - على تلك النظم وهذا العلم - لم تزل قائمة، ولم تظهر ثمرتها فى الأزهر بعد. وظهرت بعيداً عن الأزهر فى أذواق الكتاب والشعراء وطائفة من القراء، حين قرأوا طائفة من الشعر القديم جاهلية وأموية وعباسية. وحين قرأوا طائفة من كتب الأدب التى ظهرت أيام العباسيين. فرأوا فى هذا كله قرباً من الطبيعة، وبعداً من التكلف، ورأوا فى هذا كله حياة للحس والعاطفة والعقل، وأحسوا بعد ما بين هذا النحو من الأدب الحى وبين ما ألفوه من هذا الأدب الميت، كما أحسوا أن هذا الأدب القديم الحى أقرب إلى نفوسهم، وأقدر على تمثيل عواطفهم، وتصوير شعورهم من هذا الادب الجديد الميت، الذى لا يمثل إلا قدرة أصحابه على جميع الألفاظ وتفريقها، والملاءمة بينها حسب طرائق البديع دون أن تمثل هذه الألفاظ المجموعة أو المتفرقة

والملتئمة أو المختلفة حركة قلب من القلوب، أو شعور نفس من النفوس، ودون أن تتصل هذه الألفاظ بقلوب القراء و نفوسهم، إذ كانت لم تصدر عن قلوب الأدباء ولا نفوسهم. فأخذ الذوق يتغير، وكان تغيره قوياً، ظهر فى مظهرين مختلفين: أحدهما إيثار اللغة العامية على لغة الأدب العصرى، والآخر إيثار اللغة القديمة والأساليب القديمة على لغة هذا العصر وأساليبه.

ورأينا رجلا كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسى، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوى، ورأى أن الأدب العصرى أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسى الحى فيترجم لقومه، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل موليير فى الزجل العامى لا فى الشعر العربى.

ورأينا شعراء يتحللون من قيود البديع وينصرفون الانصراف كله عن الفنون التى ألفها الشعراء فى عصرهم، ثم يفترقون فمنهم من يتجه إلى اللغة العامية فإذا هو ينظم فيها الزجل والموال، ومنهم من يتجه إلى اللغة العربية القديمة فإذا هو ينظم فيها الشعر متأثراً شعراء الجاهلية والاسلام والعصر العباسى. وكان النثر يساير الشعر فى هذه الحركة ولكن تطوره كان بطيئاً: كان أبطأ من تطور الشعر، فكان الكتاب يعتمدون على اللغة

العامية ، وكانوا يعتمدون على اللغة القديمة الفصحى ، ولكنهم كانوا يجدون مشقة شديدة فى التخلص من قيود السجع والبديع ، ومن ضروب خاصة فرضت عليهم فى التعبير فرضاً فلم يكن اطراحها يسيراً عليهم .

كذلك ظهر شعر البارودى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن ؛ عربياً فصيحاً حراً طليقاً ، بينما كان نثر الشيخ محمد عبده مضطرباً بين فصاحة النثر القديم وركة النثر الحديث ، متردداً بين حرية القدماء ورق المحدثين . ورأينا المتأخرين المحافظين فى النثر قد عمروا حتى أول هذا القرن ، ولم يخلصوا من قيد السجع والبديع إلا بعد أن طغى عليهم سيل هذه النهضة الحديثة التى ظهرت عنيفة بعد الحرب الكبرى . وما نزال نرى إلى الآن طائفة من الكتاب الناثرين قليلين ، ولكنهم موجودون يكتبون فيسجعون ويخضعون لقيود البديع وأغلاله خضوعاً منكراً ، بينما أفلت الشعراء إفلاتاً تاماً من قيود البديع وأغلاله ، فلا نكاد نرى شاعراً مصرياً فى هذا العصر يتقيد به أو يخضع له .

تغير الذوق الأدبى إذن بفضل المطبعة ، واندفع الكتاب والشعراء إلى نحو آخر من النثر والشعر لم يكن مألوفاً من قبل ، ولكن الكتاب والشعراء اندفعوا فى طريقين متعاكستين

تعاكساً تاماً. فأما الكتاب فجروا إلى الإمام وتخلف منهم فريق، وأما الشعراء فجروا إلى وراء، ولم يكد يتخلف منهم أحد. ومن هنا كان النثر العربى فى هذا العصر جديداً كله أو كالجديد، وكان الشعر العربى فى هذا العصر قديماً كله أو كالقديم. ومن هنا كثرت معارضة البارودى وشوقى وصبرى وحافظ لفحول الجاهلية والإسلام فى الشرق والغرب، ولم يكثر بين الكتاب الناثرين من تأثر بعبد الحميد أو ابن المقفع أو الجاحظ، فإن وجد منهم من تأثر بهؤلاء الكتاب فهم قليلون، وتأثرهم ضيق محدود، لا يلبث أن يزول ويقوم مقامه تأثر بكتاب آخرين ليسوا من العرب وآدابهم فى شىء.

وجد بين الكتاب والخطباء فى هذا العصر من حاول أن يكون جاحظى النزعة أو مقفى الأسلوب، أو مقتدياً بعلى وزياد والحجاج فى الخطابة، ولكن هذه المحاولة كانت طوراً من أطوار حياتهم الفنية لا أكثر ولا أقل، فما لبثوا أن اندفعوا فى تقليد الكتاب الغربيين والخطباء الغربيين، فبعد الأمد بينهم وبين مثلهم القديمة. ولم يوجد أو قل لم يكن يوجد بين الشعراء من حاول أن يتأثر فكتور هوجو أو لامارتين أو بيرون أو جوت، بل فى الأمر شىء من العجب فبين كتابنا

الناثرين من تأثروا هؤلاء الشعراء الغربيين ، وحاولوا تقليدهم فى النثر كما حاولوا تقليد الكتاب والخطباء من أهل الغرب .

ولعل من الخير والحق أن ننصف الشعراء فنلاحظ أنهم كانوا مضطرين إلى أن يتأثروا بالقديم أول الأمر ، لأن هذا التأثر بالقديم فى نفسه دليل على الحياة والقوة والقدرة على البقاء والجهاد . هو دليل على أن لهذا الأدب العربى ماضياً خصباً فيه غناء وفيه قدرة على الحياة ومغالبة العصور ، وفيه قوة على أن يعيش ويعبر بأساليبه وأنماطه القديمة عن طائفة من أنحاء الحياة الجديدة مضت بينه وبينها قرون طوال . ثم إن الكتاب والخطباء كانوا بحكم فن الكتابة والخطابة نفسه متصلين بالحياة الاجتماعية اليومية ، وحياتنا الاجتماعية اليومية متطورة سريعة التطور متحركة قوية الحركة ، فلم يكن بد للكتابة والخطابة من أن تتبعاها فى تطورها السريع وحركتها القوية ، بينما أرادت حياتنا الأدبية أن يكون الشعر زينة ولهواً لا تتصل بحياة اليوم ، ولا تظهر الا من حين إلى حين عندما تدعو الى ظهورها حاجة قوية ، أو ضرورة ماسة . فالشعر غير مكره على السير السريع ، ولا على الحركة الحثيثة ، فليس غريباً أن يسرع النثر ويبطىء الشعر .

نعم ولكن النثر لم يدفعه الى السرعة اتصالنا بحياتنا الاجتماعية اليومية وحده ، وإنما دفعه الى هذه السرعة أيضاً نشاط الكتاب ، واتصالهم بحياة الشرق والغرب ، وانصرافهم الى القراءة والجد وحرصهم على التأثير فى نفوس القراء ، بل حرصهم على السيطرة على هذه النفوس . كما أن الشعر لم يضطره الى البطء بعده عن الحياة الاجتماعية واليومية وحده ، وإنما اضطره إليه أيضاً ما أشرت إليه - فى غير هذا الموضع - من كسل الشعراء وفتورهم ، وانصرافهم عن القراءة ، وتعلقهم بالخيال وحده ، وافتتانهم بالقديم وازدراؤهم للجديد .

ومهما تكن الأسباب التى دعت إلى رقى النثر وإسراعه فى هذا الرقى ، وإلى جمود الشعر واستمساكه بهذا الجمود ، فان هناك حقائق أدبية واقعة ، لاسبيل الى الجدال فيها ، وهى أن نهضتنا الأدبية إنما استمدت روحها وحياتها من القديم قبل أن تستمده من الجديد ، وأن نهضتنا الشعرية ظلت إلى الآن قديمة فى نشأتها وروحها وغايتها ؛ بينما تطورت نهضتنا النثرية ، فلم تعتمد على القديم إلا ريثما ينبت فى جناحها الريش . فلما استوثقت من جناحيها طارت مستقلة ، فبلغت من الرقى أمداً بعيداً .

وإذن، فعندنا كتاب مجددون، وعندنا كتاب أحيوا النثر القديم. وللكتاب فضلان: فضل هذا التجديد الذى لم يكن، وفضل هذا الإحياء لما كان قد عبث به الزمان. وعندنا شعراء ولكنهم لم يجددوا شيئاً، ولم يبتكروا ولم يستحدثوا، وإنما اكتسبوا شخصيتهم من القديم، واستعاروا مجدهم الفنى من القدماء، فليس لهم إلا فضل واحد هو فضل الإحياء. ومازال ينقصهم فضل آخر هو فضل الإنشاء والابتكار.

وكل هذه الحقائق واضحة لمن يلم بالأدب المصرى الحديث إلمامة مجملة. ولكن فى مصر طائفة من الأدباء، لا يريدون أن يطمئنوا إليها أو يعترفوا بها، يشق عليهم أن يقال: أن ليس لهذا العصر شعراء فى مصر. وكيف لا! وفى مصر أمير الشعراء، وكبير الشعراء، وشاعر النيل، وشاعر القطرين، وشاعر العرب، وما شئت من هذه الأسماء والألقاب!

وليس من شك فى أن هؤلاء الأدباء معذورون، فهم بين جاهل للمثل الأدبى الأعلى، وبين متأثر بالوطنية، يريد أن يكون وطنه صاحب الزعامة الأدبية فى الشرق من جهة، وأن يثبت للبلاد الغربية فى الجهاد من جهة أخرى. وكل هذا حسن، أو كل هذا محتمل، ولكن هذا شىء والحقائق الواقعة شىء

آخر . ولا بد من أن يقتنع الأدباء جميعاً بأن ليس فى مصر شعر خليق أن يسمى هذا الاسم . ولا بد من أن يتكون فى مصر رأى عام فى الأدب يدفع إلى الحرية الأدبية ، كما تكوّن فيها رأى عام فى السياسة يدفع إلى الحرية السياسية . وكم أكون سعيداً إن تناولت شعر شعرائنا النابهين فدرسته درساً حراً مفصلا بريئاً وأدّى هذا الدرس إلى تكوين هذا الرأى العام الأدبى من بعض الوجوه .

— ٢ —

مقدمات .

بين يدى منذ أيام دواوين شعرائنا الثلاثة ، الذين اتفق الناس أو كادوا يتفقون على أنهم أعلام الشعر العربى فى هذه الأيام ، وهم شوقى أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل ومطران شاعر القطرين .

وقد كنت أمنى نفسى ساعات أختلسها من حين إلى حين لأنفقها مع هؤلاء الشعراء مرتاحاً إليهم ملتمساً عندهم هذا الجمال الفنى الذى يعوزنا فى حياتنا اليومية . ومازلت أمنى نفسى هذه الساعات فى إخلاص وحرص ، وستظل دواوينهم بين يدى حتى أظفر منهم بهذه اللذة التى يلتمسها الناس عند الشعراء

ولك على ألا أكون أثِراً ولا بخيلا ، وأن أشركك فيما أجد عندهم من متعة ، على أن أشركك أيضاً فيما أصادف عندهم من نبو أو تقصير .

أما اليوم فقد حيل بينى وبين ما كنت أريد لأنى صادفت فى أول هذه الدواوين مقدمات أحببت أن أقرأها فقرأتها ، ووجدت فى قراءتها لهواً ومتاعاً صرفنى عن الشعراء . وليس فى ذلك شىء من العجب ، فقد كتب المقدمة لديوان شوقى صديق هيكل ، وأنا كلف بما يكتب هيكل ، مفتون بقراءته والنظر فيه وتقريظه ونقده ؛ جاداً مرة ، ومازحاً مرة أخرى . كلف بما يكتب هيكل كلفى بالتحدث إلى هيكل نفسه . وأنا حين أنقده أو أقرظه لا أسلك معه إلا الطريق التى أسلكها حين أتحدث إليه : طريق فكاهة يمازجها الجد الذى لا يخلو من مرارة تحمله أحياناً على أن يقول : أما إنك ما زلت شيخاً ! وقد خيل إلى أن أذكر أن الناس كانوا يضيفون المقدمة التى صدر بها ديوان حافظ إلى كاتب معروف كان فى وقت من الأوقات زعيما للكتاب الذين عاصروه ، ثم انصرف عن الكتابة فنسيه الناس ، ونسى هو نفسه أيضاً .

أما مقدمة ديوان مطران فقد كتبها مطران نفسه . وهو

بين هؤلاء الثلاثة الشاعر الوحيد الذى عنى بشعره ، ووجد فى نفسه الشجاعة على تقديمه للقراء . فأما الشاعران الآخران فقد آثرا أن يستظلا بغيرهما من زعماء النثر . وربما كان لهذا الفرق بين مطران وصاحبيه شىء من الخطر ، وربما كان هذا الفرق الذى يظهر ضئيلا عنواناً لفرق آخر عظيم بين شعر مطران وشعر صاحبيه .

فالحق أنك لاتعرف مذهب شوقى وحافظ فى الشعر إلا إذا قرأت شعرهما واستقصيته ، واستخلصت هذا المذهب من قصائدهما ومقطوعاتهما ، بل من أبياتهما المتفرقة . ولكنك لاتقرأ بيتاً واحداً من شعر مطران فى هذا الديوان إلا بعد أن تكون قد عرفت مذهب الرجل فى الشعر ، وعقيدته الفنية ، وأسلوبه فى فهم الجمال الأدبى وعرضه على الناس .

وبينما تلتمس مذهب شوقى فى مقدمة هيكل ، ومذهب حافظ فى مقدمة ذلك الكاتب المعروف فلا تجدهما أصلا ، أو تجدهما فى شىء من الغموض والمواربة والتأثر بنفسية الكاتبين ومزاجهما ومذهبهما الأدبى ؛ تجد مذهب مطران فى الشعر واضحاً جلياً ، يعرضه عليك هو فى صراحة وإخلاص ، لا يكدرهما إلا هذا السجع المتكلف ، فمطران إذن حر فى شعره ، ولكنه فى نثره لم يضع عن نفسه الأغلال بعد .

وقد قرأت مقـــدمة هيكل ، وكنت أظن أننى سأظفر فيها بمذهب شوقى فى الشعر ، وأنا أعلم أن هيكلا من أقدر الناس على التحليل وأبرعهم فيه . قرأت له ما كتب عن جان جاك روسو وأناتول فرانس وبيير لوتى ، فلم أشك أن كثيراً من الناس يستطيعون أن يقنعوا بقراءته عن قراءة هؤلاء الكتاب أنفسهم . ولكنى لم أكد أظفر بشئ صريح من العقيدة الشعرية لشوقى فيما كتب عنه هيكل ، أترى أن مصدر ذلك أن ليس لشوقى عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها؟ أم ترى أن مصدر ذلك أن هيكلا لم يعن بشعر شوقى عنايته بنثر أناتول فرانس وجان جاك وبيير لوتى ؟ أم ترى أن هيكلا قد عجز عن فهم شوقى ، ووفق إلى فهم هؤلاء الكتاب الفرنسيين؟ أم ترى أن هيكلا قد كتب مقدمته هذه عن طمع فى الراحة وفراغ البال ؟ أم ترى أن كل هذه الأسباب قد اشتركت وتظاهرت فقصرت بمقدرة هيكل عن أن تعرض العقيدة الشعرية لأمير الشعراء فى شئ من الوضوح والجلاء ؟

الواقع أنى لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة فى الشعر ، وما أرى أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة ، وما أرى أنه فكر فى الشعر إلا حين يقوله ، إنما هو - كما يقول

هيكل فى شىء من الدهاء ـ مجدد حيناً ومقلد حيناً آخر . وهو فى تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وإنما يتأثر بالساعة التى يتهيأ فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذى يقرض فيه الشعر ليس غير . والواقع أيضاً أنا مكرهون على أن نعنى بأناتول فرانس وجان جاك وبيير لوتى وأمثالهم أكثر مما نعنى بشوقى وأمثاله ، لأنا نجد عند هؤلاء من اللذة والغناء مالا نجده عند شاعرنا المجيد ! ولأن نفوسنا تتصل بنفوس هؤلاء الكتاب والشعراء من الفرنجة أكثر مما تتصل بنفس شاعرنا العربى المصرى . وأنا أزعم أن هيكلا لو كتب عن بودلير أو فرلين أو پول فاليرى من الشعراء الفرنسيين لوفق أكثر من توفيقه حين كتب عن شوقى ! وقد أقام الدليل على ذلك فى غير شك حين كتب عن شكسبير فأغنى وأمتع .

ومن السخف أن نقول إن هيكلا يتقن الفرنسية والانجليزية أكثر مما يتقن العربية ، فويل للعربية إذا لم يتقنها هيكل ! وإنما الحق أن شعر شوقى لم يستطع أن يلهم هيكلا ما استطاع أن يلهمه نثر الكتاب الفرنسيين ، وشعر الشاعر الانجليزى الذين أشرنا إليهم من قبل .

والحرج ظاهر فى مقدمة هيكل كلها ، وإن شئت فقل إن

المجاملة ظاهرة . فأنا أراه يستغرق من هذه المقدمة جزءاً ليس بالقصير ليبسط لنا رأياً فى ظاهرة وجدها فى شعر شوقى ، وهى: أن شخصية الشاعر ثنائية ، فهو مؤمن ، وهو محب للحياة ولذاتها ، أو قل : هو زاهد ومستمتع معاً . وقد حاول هيكل أن يعلل هذه الثنائية فكد وجد ولعله وفق ، ولكنه أعرض عن شىء كنت أحب ألا يعرض عنه ، أعرض عن الصناعة الشعرية التى تظهر للشعراء شخصيات مختلفة جداً ولا سيما فى أدبنا العربى العصرى ، الذى لا يمثل نفس الأديب لأنه ليس طبيعياً ، وانما يمثل تكلفه ورغبته فى إرضاء القراء فهؤلاء الشعراء الذين ينظمون فى الحكم والأخلاق إنما يريدون أن يتأثروا المتنبى وأبا العلاء ، فشخصيتهم هذه الحية الزاهدة شخصية مصنوعة ، كما أنهم حين يتغنون الخمر ، ويتها لكون على وصفها ، إنما يريدون أن يتأثروا أبا نواس والأخطل ، فشخصيتهم هذه الماجنة شخصية مصنوعة ، كما أنهم حين يمدحون النبى إنما يريدون أن يتأثروا صاحب البردة ، فشخصيتهم هذه مصنوعة . وهم لا يسلكون طريقاً من طرق الشعر ، ولا يتعاطون فناً من فنون الشعر الا مقتادين مقلدين ، فهم يصنعون شخصياتهم التى تراها فى شعرهم ، هم يخفون بها شخصيتهم الأولى التى فطرها الله ، وهم

بهذا التكلف يحولون بينك وبين الوصول اليهم وفهمهم كما هم فى حياتهم العادية . ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألا يغلو فى اتخاذ مايصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدر تاثير التكلف والتصنع والتقليد وتملق الجمهور والأفراد فى هذه المرآة .

فازدواج الشخصية الذى يلمحه هيكل فى شعر أمير الشعراء لايدل فى حقيقة الأمر الاعلى أن أمير الشعراء يقلد المؤمنين والمستمتعين كما يقلد غيرهم من أصحاب الشعر .

أما المقدمة التى صدر بها ديوان حافظ فريحة لأنها لاتشير الى حافظ ، ولا الى شعره بكثير أو قليل ، وانما هى كلام فى الشعر من حيث يفهمه صاحب المقدمة ، وهو يفهمه على الطريقة العتيقة الصرفة . وحسبك أنه يرى الشعر : « ظرف الحكمة ، ومسرح الخيال ، ومغنى الفصاحة ، وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة » فان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئاً فأنت موفق سعيد ! أما انا فلا أرى فيه إلا ثرثرة وتكراراً . والمقدمة كلها على هذا النحو كلام مرصوف ولفظ مصفوف ، لامزية له الا أنه منتق مختار .

* * *

وأما مقدمة مطران فقصيرة ولكنها متعبة ممتعة فى وقت واحد : متعبة لما فيها من السجع الذى لا رشاقة فيه ولا ظرف ولا موسيقى ، وممتعة لأن صاحبها أراد أن يقول شيئاً فقاله وهذا الشىء ليس بالتافه ولا باليسير . وإنما هو شىء قيم له خطره وأثره البعيد . فمطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد اليه ، وحاول أن يعود اليه مجدداً لا مقلداً ، وهو ينبئك بأنه يعرض عليك فى ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ماوصل إليه من التجديد . وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد مايريد ، وانما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده ، وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف . وانما يعلن ثورته على القديم ، واغتباطه بالعصر الذى يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وانما يحتفظ بأصول اللغة واساليبها فى حرية ، كما يتأثر القدماء فى اطلاق فطرتهم على سجيتها ، يكظم فطرته ولا يغشيها بالأستار الخداعة الخلابة . وهو فنى له فى جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحاً كل الوضوح ، ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم ، لأنه يمثل شيئاً من

المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الأبيات ، وتتنافر وتتدابر . ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء ، حسنة التأليف فيما بينها . ثم هو فوق هذا كله مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا ، ولا عقلا صرفا وانما هو مزاج منهما .

الحق أنى معجب بمقدمة مطران ، لا أكره منها إلا سجعها أرأيت أنى لم أخطىء حين أخرت النظر فى شعر الشعراء ، ووقفت عند هذه المقدمات وقفة قصيرة ! ولكنك توافقنى على أن هذه المقدمات لا تعطينا شيئاً فى جملتها ، فهى تمثل لنا أذواق الذين كتبوها دون أن تمثل لنا مع ذلك الذوق الأدبى العام فى هذا العصر ، ودون أن تعرض علينا ما يراه هذا الذوق الأدبى العام مثلا أعلى للجمال الفنى فى الشعر ، ولكن فى مصر شعراء غير شوقى وحافظ ومطران ، لهم دواوين ولدواوينهم مقدمات ، فمن يدرى لعلنا نظفر فى دواوينهم ومقدماتهم بما لم نظفر به فيما قرأنا الآن ! .

— ٣ —

المثـــل الأعلى

«رد»

صديقى . . .

رأيتنى أردد فى هذه الأيام ذكر المثل الشعرى الأعلى ، والذوق الأدبى الحديث، والمذاهب الفنية للشعراء ؛ فأنكرت هذه الألفاظ ، أو لم تتبين ماقصدت به اليه فيما تقول . فأنت تسألنى عنها : ماهى ؟ وأين تلتمسها ؟ وكيف السبيل إلى تحقيق معناها ؟ وعجيب منك هذا السؤال ، وما أنت بالغافل ولا المحدث فى الأدب ، وقد نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة وأراك الآن قد نيفت على الأربعين، ان لم يكن يؤذيك أن يعرف الناس سنك ! نشأت فيه ولما تبلغ الخامسة عشرة ، وسلكت فيه طرقاً مختلفة، وبلوت منه فنوناً متباينة؛ بلوت العربى القديم، وبلوت أدب العباسيين والأندلسيين، وأتقنت الأدب الحديث فى مصر وغير مصر ، وتذوقت أدب اليونان والرومان، واستمتعت بأدب الفرنسيين والانجليز . وكنت وما زلت أجد لذة قوية حين أسمعك ترد شعر المحدثين إلى أصوله القديمة

مفتناً فى ذلك غواصاً على غرائبه - كما يقولون - وكنت وما زلت أجد لذة قوية حين أسمعك تعجب ببيت من الشعر العربى أو قصيدة من الشعر الأجنبى فتعرض مافيهما من الجمال عرضاً يزيده بهاء وروعة . وها أنت ذا الآن تسألنى عن المثل الشعرى الأعلى، وعن الذوق الأدبى الحديث ، وعن مذاهب الشعراء فى الشعر؛ سؤال من لاحظ له من فن، ومن لم يزاول الدراسة الأدبية قليلا ولا كثيراً .

ما أرى الا أنك عابث صاحب لهو ودعابة ، أو ماكر صاحب كيد ، تريد أن تثير نحواً من البحث ترى فى إثارته شيئاً من النفع. فان تكن عابثاً فأحبب إلى بعبثك، وان تكن ماكراً فأهون على بمكرك . ولو أن لى من الوقت سعة لشاركتك فى هذا العبث أو للقيت مكراً بمكر ، وكيدا بكيد.

تسألنى عن المثل الشعرى الأعلى ماهو؟ فسل عنه نفسك حين تقرأ قصيدة للأخطل أو لأبى نواس أو لمسلم بن الوليد أو للبارودى أو لشوقى . وسل عنه نفسك حين تنظر فى شعر فرجيل أو حين تنشد شعر فيكتور هوجو. سل نفسك عن هذا المثل الشعرى الأعلى حين تقرأ شعر هؤلاء القدماء والمحدثين فتجد عند أولئك وهؤلاء لذة مختلفة فى طبيعتها

تتفاوت قوة وضعفاً ، ويتباين أثرها فى نفسك تبايناً غريباً .

فالناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون اللذة الفنية إلا فى الجديد ، وهم مخطئون أيضاً حين يرون أن أصحاب القديم لا يجدون اللذة إلا فى الشعر القديم ، فأنا من أصحاب الجديد ومن أشدهم إلحاحاً فى تأييده والدعوة إليه ، ولكنى على ذلك أجد فى قراءة القديم لذة لا تعدلها لذة ومتاعاً لا يشبهه متاع . ذلك لأن القديم والجديد لم يستمدا جمالهما الفنى من القدم والجدة وحدهما ، وإنما استمداه من هذا الروح الخالد الذى يتردد فى طبقات الانسانية كلها ، فيحل فى كل جيل منها بمقدار . وهو يتشكل فى كل جيل بالشكل الذى يلائمه ، ويتصور فى كل بيئة بالصورة التى تناسبها . وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للانسانية : مصدر وحدة لأنه واحد يجمع الناس مهما يختلفوا على الإعجاب والشعور باللذة القوية . ومصدر فرقة لأن له من أشكال الأجيال والبيئات المختلفة ما ينوعه ويخيل إليك أنه كثير . نعم ، العربى والفرنسى والانجليزى يشعرون جميعاً باللذة حين يقرأون خصومة أخيل وأجاممنون لا يحول اختلافهم الجنسى بينهم وبين هذا الإعجاب وهذا الشعور باللذة ولكنهم على اشتراكهم فى الاعجاب واللذة

يختلفون فى تذوقهم لهذا الشكل الخاص الذى يتشكل به الجمال الفنى فى الالياذة . هذا يرضاه وهذا ينبو عنه، وهذا يقف منه موقف غير المكترث، ذلك لأن بين هذا الشكل وبين نفوس هؤلاء الناس صلة تختلف قرباً وبعداً ، وتتفاوت قوة وضعفاً باختلاف الجنسيات والبيئات والعصور . ففى الجمال الفنى كما ترى وكما يقول الفلاسفة وحدة وكثرة . فأما الوحدة فهى جوهره ، وأما الكثرة فهى أعراضه. ولكن طبيعة الانسان قد أرادت ألا توجد هذه الوحدة من حيث هى منفصلة عن أعراضها وعن مثلها المختلفة التى تصل بينها وبين نفوسنا ، فلابد لهذا الجمال من لغة تعبر عنه ومن صورة تحتويه ، واللغات مختلفة ، والصور متباينة .

واذن فيخيل الى، وأحسبك كنت ترى معى هذا الرأى، أن المثل الأعلى فى الفن إنما هو هذا النحو الذى يحقق هذا الجمال الفنى الخالد الواحد فى أحسن صوره وفى أشدها بالذوق اتصالا وللنفس ملاءمة .

فالالياذة كانت مثلا أعلى لليونان لأنها حققت لهم هذا الجمال فى أجمل صورة يونانية ممكنة، لاءمت نفوسهم واتصلت بأذواقهم، ولكنها لا تحقق لنا نحن المثل الأعلى ، لأنها على حظها من

الجمال الخالد لاتتصل فى شكلها وصورتها بنفوسنا وأذواقنا ؛ لغتها ليست لغتنا ، وخيالها لايتصل بحياتنا الحاضرة ، فنحن نشعر حين نقرؤها بالجمال ، ولكننا نشعر شعوراً ناقصاً أقل من شعور اليونان القدماء به حين كانوا يقرأون الالياذة .

وشعر الأخطل وأبى نواس حين يجيدان ، يمثل لنا هذا الجمال الخالد أيضاً ، ولكن هذا التمثيل وان كان أقرب إلى نفوسنا وأذواقنا من الالياذة لايلائم هذه النفوس والأذواق من كل وجه ؛ فلغته ليست لغتنا وإن قربت منا ، وخياله ليس خيالنا وإن كان بينه وبيننا سبب . ونحن نجد فى هذا الشعر من اللذة مايجده الفرنسيون مثلا فى شعرهم أثناء القرون الوسطى ، أو فى شعر فرجيل وهوراس .

وما أظنك تنكر أن الفرنسيين على اعجابهم بفرجيل وهوراس يؤثرون عليهما كورنى وموليير وراسين . وهم يؤثرون الآن على هؤلاء أنفسهم شعر القرن التاسع عشر وتمثيله ، لأن هذا الشعر والتمثيل أقرب إلى نفوسهم العصرية مما كان فى القرن السابع عشر من شعر وتمثيل .

للقديم إذن جماله نشعر به نحن شعوراً منقوصاً ، وكان القدماء يشعرون به شعوراً كاملا ، ويستطيع العلماء الذين

يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم قدماء يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة ، فيشعرون من الجمال بما كانوا يشعرون به . ولكن هذا على صعوبته وعسره لم يقسم ولا ينبغى أن يقسم الا لطائفة قليلة جداً من الناس . وأنت تسرف حين تطلب إلى عامة المتأدبين أن يذوقوا شعر الأخطل وجرير كما تذوقه أنت ، ويسرف أصحاب اليونانية من الفرنسيين والانجليز حين يطلبون إلى جمهور المتأدبين من قومهم تذوق هوميروس وبندار كما يتذوقونهم . ولكننا جميعاً نصيب ونقصد حين نطلب إلى المتأدبين المعاصرين أن تتقارب أذواقهم فى فهم الأدب المصرى الحديث والاعجاب به . ولا يسرف الممتازون من أدباء الفرنسيين والانجليز حين يطلبون الى عامة المتأدبين من قومهم أن يذوقوا شعراءهم المعاصرين كما يذوقونهم هم أو على نحو من ذلك قريب .

نعم هذا حق فى نفسه ، ولكنه ليس حقاً حين نريد أن نلائم بينه وبين الحقائق الواقعة فى مصر . ذلك لأن الشعر المصرى الحديث لا يلائم الذوق المصرى الحديث ؛ فهو من قسمة العلماء لا من قسمة المتأدبين عامة . هو قديم فى صورته وشكله ولغته كشعر الأخطل وجرير والفرزدق فيفهمه ويذوقه

الذين قدّر لهم أن يفهموا شعر الأخطل والفرزدق وجرير، فأما الذين لم يقدر لهم فهم هذا الشعر ولم يطلب إليهم إلا أن يذوقوه ذوقاً ناقصاً، فلا ينبغي أن يطلب اليهم الا أن يذوقوا هذا الشعر الحديث ذوقاً ناقصاً أيضاً.

بلى، هناك فرق بين الشعر العربي المصري الحديث والشعر العربي القديم، فهو يشبهه في الصورة والشكل، ولكنه يخالفه في الحقيقة والجوهر. هو يشبهه في اللغة وأنحاء القول والتعبير وضروب التخييل والتصوير، ولكنه لا يشبهه في الموضوع ولا في الأغراض. واذن فلشعر القدماء معنى في أذواقنا لأنه يمثل حقيقة من الحقائق هي حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها. ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى، لأنه لا يمثل حياة القدماء اذ هو لم ينشأ لتمثيلها، ولا يمثل حياتنا الحاضرة لأن لغته وشكله وأنحاءه في التمثيل والتصوير لم تنشأ لتمثيل هذه الحياة. وما أرى انك نسيت ما كنا فيه من ضحك وأسى حين قرأنا منذ أعوام قصيدة شوقي التي يصف فيها انتصار الترك على اليونان في آسيا الصغرى، والتي يبدأها بقوله:

الله أكبر كم في الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب!

نعم ضحكنا ، وأسينا حين قرأنا هذه القصيدة . وأضحكنا مطلعها قبل كل شيء ، فكم عجبنا من ذكر خالد ومقارنة مصطفى كمال به ، حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين فى الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابهين فى الانتصار والانهزام تملأ النفوس اعجاباً ، وحين كان الشرق فى ذلك الموقف الذى كان ذليلا يشوبه شعور بالعزة وطموح اليها ، والذى كان أثراً من آثار هؤلاء القواد . ضحكنا من قياس مصطفى كمال الى خالد بن الوليد .

والحق أنا لانعرف أمدح شوقى مصطفى كمال حين قرنه الى الفاتح العربى القديم ، أم ذمه ؟ !

ولم نكد نمضى فى قراءة القصيدة حتى ازددنا إغراقاً فى الضحك والأسى ، وكنت تقول لى إن هذه القصيدة أصدق دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياة الحديثة وفشل الشعر العربى العصرى عما قصد اليه من إمتاع النفوس واشعارها لذة الجمال الفنى .

ولما فرغنا من قراءة القصيدة سألتنى ما رأيك فى هذه القصيدة الطويلة ، التى تصف انتصاراً ضخماً بعد الحرب الكبرى ، فلا تعرض فى وصفها الطويل المفصل للمدفع ولا

للطيارة ولا للتنك ولا لغيرها من أدوات الحرب فى العصر الحديث ، وانما اكتفت بالخيل والسيف والرمح والدرع ؟!

وكنت تسألنى مارأيك فى هذه القصيدة التى تريد أن ترفع مصطفى كمال إلى منزلة القواد العظام فى العالم، وانتصاره إلى منزلة الانتصارات العظمى فى العصر الحديث فتشبه وقائعه ببدر ؟ وما رأيك فى هذه القصيدة التى أرادت أن تصف ابتهاج الترك خاصة والمسلمين عامة بهذا النصر ، فاذا هى تذكر اهتزاز دمشق واستيقاظ الأيوبيين فيها ، وتهنئتهم للحمدانيين فى حلب ؟ وكنت تقول حقاً لقد ضاق القديم عن أن يكون لباساً يتجلى فيه الجمال الفنى الحديث ؟

أحب أن تذكر ذلك ، فان هذه الذكرى قد تنفع ، لأنها تختصر لك جوابى على سـؤالك الذى تريد أن تعرف به ما المثل الأعلى للشعر .

المثل الأعلى للشعر هو هذا الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقاً فيأخذوا بنصيبهم النفسى من الخلود .

ولكنك سنسألنى : وماذوق العصر ؟ وماقيمة الاتصال

بين الشعر والذوق العصرى؟ وكنت أحب أن أذكرك مجالس أخرى كانت بيننا تجيبك على هذا السؤال. ولكن قوما غيرك يدعوننى اليهم ولهم على مثل مالك من حق، فالى وقت آخر.

— ٤ —

فى الذوق الأدبى

« رد أيضاً »

صديقى . . .

أعود اليك الآن ، بعد أن فرغت من درس فى الأدب القديم ، أعجبنى موضوعه وأرضانى ما قيل فيه . أعود اليك إلى حيث تركتك منذ ساعات، تسألنى عن ذوق العصر ماهو؟ وما الصلة بينه وبين الأدب؟ وما الصلة بينه وبين المثل الأعلى فى الفن ؟ وأنا أتعجل هذه العودة إليك ليتصل آخر الحديث بأوله ، وليكون هذا الكتاب تتمة للكتاب الذى أرسلته اليك ضحى هذا اليوم .

وماذا تريد أن أصنع لك ، وقد قصرت ذاكرتك أو تكلفت لها القصر ،فنسيت أو تناسيت ما كان لنا من مجلس وما كان بيننا من حديث ؟ انك خليق أيها الصديق ألا تعتمد على الذاكرة وحدها، وأن تتخذ لنفسك هذه العادة التى لا بأس

بها : وهى تقييد الأحاديث العذبة اللذيذة القيمة ان صادفتها فى يوميات تعود إليها من حين إلى حين ، فتذكر نفسك وأصدقاءك وظروفكما المختلفة ، وتصل بينك وبين قديمك الخاص وتعينك على أن تتبع تطور عقلك وشعورك ، وانتقالهما من حال إلى حال وتأثرهما بالظروف المختلفة التى تحيط بهما وتعمل فيهما، دون أن تحس أنت ذلك أو تلتفت إليه. وكيف تريد أن تقضى بين قديم الأدب وجديده ، وأنت لا تستطيع أن تقضى بين قديمك وجديدك ؟ لأنك لا تلتفت إلى هذا القديم وذاك الجديد، ولا تشعر باستحالة أحدهما إلى الآخر فى ظل ما تخضع له من المؤثرات المادية والمعنوية !

أفهم أن تتطور وتستحيل، وأن تستبدل رأياً برأى وأسلوباً فى الفن بأسلوب ، ولكنى أحب لك أن تشعر بهذا التطور وتقدر هذه الاستحالات وتحسب لها حسابهما حين تكتب أو تتحدث ، فذلك خليق أن يدفع عنك ما قد تتهم به من التناقض والاضطراب ، وأنت الآن متناقض مضطرب بعض الشىء . وإذا كنت أنا أفهم مصدر تناقضك واضطرابك لأنى أعرف من حياتك الخاصة مالم يعرف غيرى. فليس الناس جميعاً مكلفين أن يعلموا أنك قضيت الصيف فى إيطاليا، وكانت لك فيها

مواقف هزت قلبك بادىء الأمر هزاً رفيقاً، ثم أخذت تتخلص إليه شيئاً فشيئاً حتى غمرته وعبثت به، ثم أخذت تتقلص عنه قليلا قليلا حتى انجلت عنه وتركته فارغاً جافاً، يكاد يحترق من الفراغ والجفاف، ثم عدت إلى مصر ذاهلا مشرد الخاطر مفطور القلب مضطرب المزاج، ثم عكفت على نفسك تمتحن وتحلل فخرجت بشيء من الشك هو إلى اليأس أقرب منه إلى الرجاء، وإذا أنت ترتاب بكل شيء، وتنكر كل شيء وتزدرى كل شيء. وما احسب أنك ستسترد حظك من اليقين والرضا والأمل إلا أن تعود إلى إيطاليا، فلعل الله أن يجعل لك من العسر يسراً، ومن الضيق سعة ومن اليأس أملا. ولعل ابتسامة عذبة فى «تورينو» ترد إلى قلبك نضرته الأولى فتستأنف الحياة والتفكير فى جد وثقة واطمئنان، وترى فى الذوق الأدبى ما كنت تراه منذ أعوام أو شيئاً منه.

ليس الناس مكلفين أن يعلموا من أمرك هذا كله. ولو قد حاولوا ذلك لضقت بهم وضاقوا بك. ولكنك أنت مكلف أن تعلم من أمرك هذا وأن تقدر أثره فى حياتك العقلية والنفسية معاً، بل فى ذوقك بنوع خاص، فإن لذلك فى ذوقك أثراً غريباً. لقد كنت أراك قبل «تورينو» تقدر الأشياء كما

أقدرها ، وتشاركنى فى الرضا عن بعض الشعر والسخط على بعضه الآخر ، وتحب أن تقف معى موقفاً وسطاً بين أولئك المختصمين الفرنسيين الذين يرى بعضهم جمال الشعر فى الموسيقى ، ويرى بعضهم الآخر جماله فى المعنى ، وكنت تقول لى : ومايمنعنا أن نقف بين هؤلاء الناس ، ونرى جمال الشعر فى التئام الموسيقى والمعنى جميعاً ؟ حتى اذا كانت تلك الليلة أخذت تصل الىّ منك كتب لا رأس لها ولا ذنب - كما يقول الفرنسيون - ثم لقيتك فاذا أنت قد تصوفت أو كدت ، واذا أنت لا تذوق من الموسيقى الا ألواناً خاصة تلائم مزاجك هذا المضطرب المحزون ، ولا تذوق من المعانى الشعرية الا ضروباً خاصة ، تلائم أملك هذا الضائع المشرد .

صدقنى أيها الأخ العزيز ، أنك تخضع الآن لأزمة نفسية عنيفة ، فما أجدرك أن تتهم رأيك فى الناس والأشياء جميعاً .

لا تبتئس ولا تظهر هذا الغضب الذى هو أقرب الى الاذعان منه الى أى شىء آخر ، فأنا راض بمزاجك هذا المضطرب محب له ، لأنى أفهمه وأذوق مايحدث عنه من الآثار ، ولأنى أشاركك فى حب ماتحب من هذه الموسيقى وهذه المعانى التى تتصل بالماضى يائسة او كاليائسة من المستقبل .

ومهما أنس فلست أنسى أننا قد أعجبنا معاً إعجاباً لا حد له بتلك القطعة الموسيقية البديعة التى أوقع بها الموسيقى « ديبارك » مقطوعة رائعة من شعر « بودلير » هى الذكرى . أحسسنا معاً أننا عشنا زمناً فى ظل تلك الأروقة الواسعة ، التى كانت تقوم على تلك الأعمدة الفخمة الضخمة ، والتى كانت تنعكس عليها من شمس البحر ألوان لا تكاد تحصى ، والتى كانت تخيل إليك إذا أقبل الأصيل أنها أغوار من البزلت » . . .

نعم ، ورأينا معاً أمواج البحر العنيفة المضطربة تعبث بصور السماء ، وتمزج أصواتها الموسيقية القوية بلون الأصيل الذى يعكر العين ... نعم ، وشعرنا معاً بهذه اللذة القوية الهادئة فى جو صفو وجلال لا حد له ، وبين هؤلاء الاماء المتجردات العطرات اللائى كن يروّحن عن جباهنا بسعف النخل ، واللائى لم يكن لهن من هم الا تعرف هذا السر المؤلم الذى كان يفنينا قليلا قليلا . ذقنا معاً جمال هذا الشعر وانسجام هذه الموسيقى واشتراكهما فى تصوير هذا المثل الأعلى الذى نطمح إليه . فإذا لم نظفر به فى حياتنا الحاضرة ، وقصرت بنا أجنحتنا عن أن نطير إليها فى المستقبل القريب أو البعيد التمسناه فى ماضينا . فإذا لم نظفر به ، وما أحرانا ألا نظفر به ! التمسناه عند أسلافنا

المترفين من أدباء اليونان والرومان وشعرائهم واستمتعنا به كما كانوا يستمتعون به هم أنفسهم ، يوم كانوا يحيونه حياة فيها الحق وفيها الخيال .

ذقنا معاً هذا الشعر وهذه الموسيقى ، وأنت متأثر بمزاجك هذا المضطرب ، وأنا هادئ النفس فارغ البال ، فأنت ترى أن اضطراب مزاجك لم يتطع ما بينك وبيني من صلة نفسية أو فنية وإذن فهوّن عليك ولا تخيل إلى نفسك أني ساخط أو منكر لما أنت فيه ، إنما أنا رفيق بك حدب عليك أحب أن تنسى « تورينو » أو أن تستأنف حياتك فيها إن وجدت إلى أحد الأمرين سبيلا ، وأحب بنوع خاص أن تقدر أثر « تورينو » فيما لك من رأى الآن فى المثل الشعرى الأعلى ، وفى الذوق الفنى ، وفى مذاهب الشعراء فى الشعر .

الذوق الفني ... لقد بعدنا عنه أو كدنا نبعد . ومع ذلك فما كتبت إليك الآن إلا لأتحدث إليك فيه ، أولا أذكرك ما كان بينك وبيني فيه من حديث . ألم نكن نتفق قبل « تورينو » على أن هناك ذوقين فنيين . لكل واحد منهما يختلف قوة وضعفاً ، ويتفاوت سعة وضيقاً باختلاف ما لشخصيته من القوة والظهور . كنا نتفق على أن هناك ذوقاً فنياً عاماً يشترك

فيه أبناء الجيل الواحد فى البيئة الواحدة وفى البلد الواحد، لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم . وكنا نتفق على أن هذا الذوق يتسع ويضيق ويقوى ويضعف : فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكا قوياً، وهذا الاشتراك هو الذى يجمعهم على الاعجاب ببعض الآثار الفنية دون بعض . وهم يشاركون فيه إلى حد ما جيرانهم أهل الشام وفلسطين ، ويشاركون فيه إلى حد أضعف جيرانهم من أهل افريقيا الشمالية . ومن هنا يعجبون مع أولئك وهؤلاء ببعض الآثار . ويعجبون مع أولئك دون هؤلاء ببعضها الآخر ، ويعجبون وحدهم بطائفة من الآثار الفنية . وكنا نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحياناً ، ويتأثر فى ضيقه هذا بالظروف التى تحيط بالطبقات والجماعات . فأهل مصر على اشتراكهم فى هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت بيئاتهم وجماعاتهم . فلأهل الأزهر ذوق خاص يكادون يستبدون به ، وقريب منه ولكنه يفارقه بعض الشئ ذوق مدرسة القضاء ودار العلوم ، وللجامعيين ذوق خاص أو قل أذواق مختلفة : ذوق يتأثر بالذوق الانجليزى ، وآخر يتأثر بالذوق اللاتينى، ذوق يتأثر بالعلم، وآخر يتأثر بالأدب، وثالث يتأثر بالتاريخ ، ورابع يتأثر بالفلسفة، وعلى هذا النحو، ثم كنا

نتفق على أن هناك ذوقاً آخر فنياً يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه مع ذلك متأثر بالشخصية الفردية، أو هو مظهر ومرآة يمثلها تمثيلا صادقاً يستبد به الفرد، أو يكاد يستبد به لا يشاركه فيه أحد غيره . وكنا نتفق على أن هذين الذوقين هما اللذان يقضيان بأن القصيدة الشعرية الرائعة ، تنشد فنشترك فى الاعجاب بها ، أو قل فى مقدار من الاعجاب بها عام ، سواء أو كأنه سواء بيننا . ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها ، أو بالبيت من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا أن يقدره .

كنا نتفق على هذا كله ، وكنا نتفق على أن الحياة الفنية انما هى مزاج من هذين الذوقين ، فيه الوفاق حيناً وفيه الصراع حيناً آخر ، وكنا نتفق على أن هذا الذوق العام هو الذى يعطى الحياة الفنية حظاً من الموضوعية ، وهذه الأذواق الخاصة هى التى تعطى الحياة الفنية حظاً من الذاتية .

كنا نتفق على هذا كله، ونحاول فى شىء غير قليل من التوفيق تطبيقه ـ كما يقول المعلمون ـ على ما ينشىء شعراؤنا من الشعر وكتابنا من النثر . وأراك الآن تسألنى عن الذوق، ما هو؟ فهل نسيت هذا كله ؟ لا ولكنها « تورينو » قد جعلت بينك وبينه

ستاراً ، وأنا زعيم أن أزيل هذا الستار ولو إلى حين .

تذكر يوم قرأنا قصيدة شوقى :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب

ياخالد الترك جدد خالد العرب ! ؟

كنا جماعة منا العمامة ومنا الطربوش ، منا المصرى ومنا السورى ، منا المسلم ومنا غير المسلم . وكنا جميعاً مرتاحين الى انتصار الترك، متشوقين إلى مايسجل هذا الانتصار ويشيد به . وتناول شاب منا الصحيفة فأنشد القصيدة فى شىء من الحماسة غريب ، وفى شىء من الاتقان فى الصوت وإخراج الحروف وتقطيع الوزن وقذف القافية كما تقذف الحجارة فرضينا وأعجبنا ، وتحمس بعضنا فصفق وافترقنا على أنها قصيدة رائعة . ثم التقينا فى مجلس من هذه المجالس التى أخلو فيها إليك وحدنا فنتحدث فى حرية ، وينتهى بنا الحديث فى كثير من الأحيان إلى ما يكره كثير من الناس . فأعدنا قراءة القصيدة وحينئذ لاحظت أنت ولاحظت أنا : أن إعجابنا الأول لم يكن إلا ظاهرة اجتماعية ، وأن بين الذوق العام وذوقنا الخاص تناقضاً غير قليل هذه المرة . ذلك لأننا كنا أثناء هذه القراءة الثانية قد تخلصنا من فوز الترك ، وتخلصنا من الجماعة التى كانت

تحيط بنا ، ولم نحكم إلا ذوقنا الشخصى . وذوقنا الشخصى معقد - كما تعلم - فيه أثر الأدب العربى القديم ، وفيه أثر الأدب الغربى الحديث ، وفيه أثر الثقافة مركبة مختلفة العناصر . فليس غريباً أن يكون حكمه فى الشعر مخالفاً لحكم الجماعات المختلطة . وأذكر وتذكر أنت أيضاً أننا لهونا يومئذ باخضاع هذه القصيدة لهذا الذوق المعقد ، فضحكنا وأغرقنا فى الضحك والسخرية من هذه الصور العتيقة البالية تتخذ لتصوير الحياة الجديدة الحاضرة ، وضحكنا بنوع خاص من هذا البيت :

قذفتهم بالرياح الهـــوج مسرجة
يحملن أسد الشَّرى فى البيض والسَلب

وأضحكتنا هذه الرياح المسرجة وان كان المراد بها الخيل . وأضحكتنا أسد الشرى على هذه الخيل ، وان كان المراد بها فرسان الأتراك ، ثم قصدنا إلى الانصاف وقلنا : شاعر يقلد القدماء ، فلا ينبغى أن ينظر اليه إلا بأعين القدماء . ولا ينبغى أن يقاس إلا بمقاييسهم . وكان هذا النوع من الانصاف فى نفسه قضاء على القصيدة فهو حكم بأنها لا تثبت أمام النقد الحديث ومقاييسه . ولجأنا الى النقد القديم ، فاما أنت فلبست ثياب أبى العباس احمد بن يحيى ثعلب ، زعيم النحويين فى الكوفة

آخر القرن الثالث للهجرة ، وأما أنا فلبست ثياب ابى العباس محمد بن يزيد المبرد زعيمهم فى البصرة وفى العصر نفسه ، وكان هذان الرجلان يختصمان دائماً . وكنا إذ وضعنا أنفسنا موضعهما نريد أن نختصم لعل اختلافنا ينفع أمير الشعراء . فأما أنا فزعمت أن هذه القصيدة فارغة إلا من الألفاظ ، ليس وراءها شيء . وجعلت أضرب لك الأمثال بشعر القدماء وبشعر الأخطل خاصة فى تصوير الهجوم والانتصار والهزيمة العامة والهزيمة الفردية ، وكنت أقف بك بنوع خاص عند الرائية التى مطلعها :

خَفَّ القَطِين فراحوا منك أو بكروا
وازعجتهم نوًى فى صرفها غِيَرُ

والتى مدح فيها الأخطل عبد الملك وبنى أمية وصور جيش عبد الملك زاحفاً على العراق وانتصاره وانهزام القيسيين أنصار ابن الزبير فى الجزيرة . وكنت أقف بك عند الرائية الأخرى التى مطلعها :

ألا يا اسلمى يا هند هند بنى بدر
وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

والتى قصد بها الشاعر إلى مثل ما قصد إليه فى الرائية

الأخرى ، ولكنه أبدع فى تصوير الهزيمة الفردية ، فصور لنا فارساً يلهب فرسه والرماح تنوشه ، وهو ينغمس معها فى السراب ، والسراب ينجاب عنه وعنها ، وهو يحثها ويفديها بأمه ان مضت فى جريها الى العصر ... كل ذلك فيما تذكر من لفظ متقن ، سهل رصين متخير . وكنت أقول لك إن هذا الشعر يلائم ذوق العرب فى عصره ، ويصور المثل الأعلى لهم فهو جميل ، وهو يعجبنا الآن ويرضينا فيمثل لنا حظاً من هذا المثل الأعلى . وكنت تسمع لى فترضى مرة وتنكر أخرى . ثم سكت حيناً وسألتنى : وأين أنت من قصيدة أبى تمام التى يمدح بها المعتصم وقد فتح عموريه ؟ . قلت ذلك فوجمت لك ثم رأينا معاً أن شوقى انما اتخذ قصيدة أبى تمام هذه نموذجاً حين أراد أن ينظم قصيدة فى انتصار الترك .

ومن غريب الأمر أن اتخذ القصيدة نموذجاً فى اللفظ والمعنى ، وفى الوزن والقافية ، فمطلع أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب

فهى من البسيط وقافيتها الباء ورويها مكسور ، وكذلك قصيدة شوقى . فأبو تمام إذن هو الذى قدم الى شوقى قوافيه

وشيئاً غير قليل من ألفاظه ومعانيه ، وبخاصة هذا التشبيه الذى كان يلائم ذوق المسلمين وهم يجاهدون الروم بقيادة الخليفة المعتصم ، تشبيه يوم عمورية بيوم بدر لأن المعتصم خليفة الله وابن عم النبى وهو يجاهد للدين ، بينه وبين بدر قرنان ليس غير ، وانتصاره بمعجزة كانتصار النبى يوم بدر ، أشرف له وأجدى عليه . أخذ شوقى هذا التشبيه من أبى تمام فألصقه بمصطفى كمال ، ولم يكن مصطفى كمال خليفة ، بل كان خارجاً على الخليفة . ولم يكن يجاهد للدين بل كان يجاهد للوطن. ولم يكن يجاهد بالسيف والرمح والخيل ، وانما كان هذا أقل أدوات الحرب خطراً . وأساء شوقى اختلاس هذا التشبيه فقد كنا نرى أن أبا تمام أورده مورد الشك حين استعمل أداة الشرط ، وأورده شوقى مورد اليقين ، وأن أبا تمام أورده فى بيتين وأورده شوقى فى أبيات . قال أبو تمام :

إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو زمام غير منقضِب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النَّسَب

وقال شوقى :

يوم كبدر فخيل الحق راقصة
على الصعيد وخيل الله فى السحب

غر تظللها غراء وارفة
بدرية العود والديباج والعذب

نشوى من الظفر العالى مرنحة
من سكرة النصر لا من سكرة النصب

تذكر الأرض مالم تنس من زبد
كالمسك من جنبات السكب منسكب

حتى تعالى أذان الفتح فاتأدت
مشى المجلىّ إذا استولى على القصب

وكنت تقول لى : إن البيت الأول من بيتى أنى تمام يعدل قصيدة شوقى كلها . وكنت أرى أن من الظلم أن يقاس هذا الشعر الذى لا يدل على شىء إلى بيت كهذا البيت فيه الشك واليقين معاً ، وفيه المبالغة والاقتصاد معاً ، وفيه اللفظ الرصين يدل على المعنى الجيد .

وكنت تقول لى : أليس من العجب أن يأخذ شوقى معنى قاله أبو تمام فى بيت واحد ، فيذيبه فى أبيات دون أن يصل إلى شىء ؟ قال أبو تمام :

فتح تفتّحُ أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القشبِ

وقال شوقى :

لما أتيت ببدر من مطالعها
تلفت البيت فى الأستار والحجب

ثم استمر شوقى يصف ابتهاج العالم الإسلامى فى عشرة أبيات زلزلت فيها الأرض زلزالها فسعى بلد إلى بلد واصطدمت مدينة بمدينة ، وتخاطب الموتى فى دمشق وحلب والأحياء فى الهند ومصر ، كل ذلك ولم يظفر بقول أبى تمام:

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

وكنت تقول لى : إن فى قصيدة أبى تمام من الشعر ما لاءم الذوق القديم ويلائم الذوق الحديث ، ويعجب به الشرقى والغربى معاً ، لأنه الشعر فى نفسه ، فيه قبس من هذا الجمال الخالد الذى هو فوق الزمان والمكان والجنسيات ، قال أبو تمام يصف اضطرام عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوم ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب !
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة فى ذا وقد أفلت
والشمس واجبة فى ذا ولم تجب

وكنت تقول: إن بيتاً واحداً من هذا الشعر يزن ديوان شوقى كله وهو قوله :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ولو أنك التمست الشعر فى قصيدة شوقى هذه لما وجدت منه شيئاً ، فان أبيت فدلنى عليه !

وكنت تقول : كان البديع فى عصر أبى تمام يعجب جمهرة المتأدبين ، فأخذ منه أبو تمام بحظ لايخلو من إسراف ، وهو لايعجبنا ، فما اضطرار شوقى اليه لولا التقليد السخيف؟ وأى جمال فى قوله :

ما كان ماء « سقاريا » سوى سقر
طغت فأغرقت الاغريق فى اللهب

لو أنه وضع اليونان موضع الاغريق لاجتنب هذا الجناس الثانى ، ولاحتفظ لبيته بشىء من الجمال الشعرى ، فالصورة لا بأس بها ، ولكن جناسين خليقان أن يفسدا أجمل الصور وأروعها .

ثم أخذنا ننتقل فى القصيدتين من بيت إلى بيت حتى انتهينا إلى أن ذوقنا القديم نفسه على تحرجه لا يستطيع ان يسيغ قصيدة شوقى ، بعد ان أبى ذوقنا الحديث ان يسيغها ! وكانت خلاصة رأيك ورأيي ، أن هذه القصيدة إنما هى أشبه شىء بالتمرين المدرسى يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التى تلقى اليهم ، فيوفقون فى الصورة ويخطئون الموضوع .

أتذكر هذا كله ؟ واذا كنت تذكره فأنت تذكر رأيك ورأيى فى الذوق الأدبى ، أما أنا فما زلت محتفظاً برأيي . وأما أنت فقد نسيت رأيك حيث تعلم ، ولعلك تجده إذا أقبل صيف هذا العام .

— ٥ —

شعراؤهم !

وما رأيك فى أن تدع اليوم شعرنا الحديث وشعراءنا المحدثين ، لنقف عند طائفة من شعراء الفرنجة ، نرى كيف يشعرون ، وكيف يعلنون شعورهم إلى الناس، وكيف يلائمون بين أذواقهم الخاصة وبين أذواق من يتحدثون إليهم من القراء، وأنا أعلم أن ليس هذا بالشىء اليسير ؟ فلو أنى حدثتك عن هؤلاء الشعراء دون أن أنقل إليك شيئاً من شعرهم لأضعت وقتك ووقتى ، ولكان حديثنا عبثاً لاخير فيه . وإذن فلا بد من أن أترجم لك طائفة من هذا الشعر الأجنبى وأعرضه عليك نماذج أتخذها موضوعاً لأحاديث مقبلة .

ولكن أتظن أمر هذه الترجمة يسيراً ؟ أما أنا فأعترف بأنه أشق وأعسر مما كنت أقدّر ، فالذوق الغربى مخالف من وجوه كثيرة لذوقنا الحديث على تغيره وتطوره . وفى اللغات الأجنبية مرونة ويسر لم يتاحا بعد للغتنا العربية . ومن هنا كانت فى الشعر الأجنبى خاصة ، والأدب الأجنبى عامة صور قد يعسر جداً نقلها إلى اللغة العربية ، حتى إذا نقلت لم نسغها ولم تطمئن إليها نفوسنا وآذاننا . ومع ذلك فهى تعجبنا وترضينا

كل الرضا حين نراها فى لغاتها الأجنبية الخاصة . ومصدر ذلك فيما نعتقد : أننا لم نتعود أن نرى فى لغتنا العربية مثل هذه الصور . وما هى إلا أن نكثر الترجمة والنقل ونجد فيهما حتى نألف هذه الصورة ويتأثر بها ذوقنا ، ونحاول أن نحتذيها ونحاكيها ، فلنبدأ غير خائفين ولا مترددين .

* * *

ولن أترجم اليوم إلا مقطوعات قصاراً قصد بها أصحابها تصوير طائفة من عواطفهم الخاصة فى ظروف خاصة ، حتى إذا أسغت هذا النوع من الشعر وألفت قراءته والاستماع له كان من اليسير أن ننتقل بك إلى ترجمة القصائد الطوال توضع فى الأغراض ذات الخطر .

وأنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير Baudelaire التى سماها : (خلوة إلى النفس) والتى تحدث فيها إلى ألمه . وأحب أن تقرأها فى شىء من التفكير والروية ، وأن ترى معى كيف استطاع الشاعر أن يتحدث إلى ألمه فى هذه الدعة والاذعان والازدراء ، وأن يصور أثناء هذا حديث الطبيعة التى تحيط به ، ويمثل ما بين هذه الطبيعة وبين

نفسه فى هـذه اللحظة التى يصفها ، فهو إذن عند ما يخلو الى نفسه لا يقطع الصلة بينها وبين الطبيعة . بل كل ما يستطيع أن يصل اليه هو أن يحـاول اعتزال الناس لحظة ، ولـكنه يعتزل الناس ليتصل بالطبيعة اتصالا قوياً ، قال بودلير :

خلوة الى النفس !

شيئاً من الهدوء والدعة أيها الألم !

لقد كنت تبتغى المساء ، فهاهو ذا يهبط ، فانظر اليه ! هذا جو مظلم يغمر المدينة ، يحمل الطمأنينة إلى قوم والهم الى آخرين !

بينما أوشاب الناس يجنون الندم من اللهو الدنىء ، يدفعهم اليه سوط اللذة ، هذا الجلاد الذى لا رحمة له ، اعطنى أيها الألم يدك وتعال هنا بعيداً منهم !

انظر الى السنين الخالية مطلة فى أثواب بالية من طنف السماء ! وانظر الى الأسف المبتسم تنشق عنه أعماق الماء ! وإلى الشمس المحتضرة تنام تحت قوس من أقواس هذا الحبور ، واسمع أيها الألم العزيز لليل الحلو يمشى وكأنه كفن طويل ينسحب فى الشرق !

وانظر الى هذه المقطوعة الأخرى للشاعر نفسه ، وقد سماها «النافورة» وهى من مشهور شعره الذى تناوله الموسيقيون فأبدعوا فى توقيعه، كما أبدع هو فى تصويره ، ولا تحكم عليه بهذه الترجمة فتظلمه ، ولكن احكم عليه ان شئت بنصه فى الفرنسية، وبالصورة الموسيقية التى استطاع الموسيقيون أن يحكوه بها .

وأحب أن تقف بنوع خاص عند هذا التشبيه الذى تدور عليه المقطوعة كلها ، فصاحبنا قد رأى النافورة ورأى الماء يَصّاعد منها فى قوة كأنه باقة من الزهر حتى اذا انتهى به التصعيد إلى أقصاه عاد فتساقط على الأرض قطرات عراضاً كل ذلك على تأثره بضوء القمر . رأى هذا فأعجبه وإذا هو يثير فى نفسه معنى آخر متصلا بحبه وحزنه لهذا الحب ، واذا هو يشبه نفس صاحبته حين يحفزها الهوى، وتملكها العاطفة فتسمو إلى أسمى أطوار الشوق، ثم يأخذها القصور الانسانى فتعصف وتهبط وإذا هى قد انتهت إلى هذا النوع من اللذة الذى ينتهى اليه الحب عادة شبه هذه النفس بهذا الماء المندفع من النافورة، وعسير علينا نحن أن نتصور النفس كما تصورها بودلير .

ولكننا مع ذلك عند ما نقرأ هذا الشعر، ولا سيما فى نصه الفرنسى لا نملك أنفسنا من الاعجاب والرضا ، ثم انظر إلى

آخر هذه المقطوعة كيف تحدث الشاعر فيه إلى الطبيعة فى طور من أطوارها ، وكيف اتخذها مرآة لحبه الحزين .

النافورة

فى عينيك الجميلتين سقم أيتها العاشقة المسكينة !

دعيهما كذلك زمناً لاتفتحيهما . . . دعيهما فى هذه الهيئة الفاترة كما فاجأتهما اللذة !

هذه النافورة فى الفناء لها أزيز لا ينقطع فى الليل ولا فى النهار ، يستبقى فى هدوء هذا الذهول الذى غمرنى به الحب منذ الليلة !

هذه الباقة التى تتفتح فى زهر لا يحصى ، والتى يزينها القمر المبتهج بألوانه ، تساقط كأنها مطر من دموع ثقال !

كذلك نفسك التى يحرقها برد اللـــذة الملتهب ، تصعد سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة ، ثم ترتد وقد أحالها الضنى موجة من الفتور الحزين تنحدر من طريق خفية إلى أعماق قلبى !

هذه الباقة . . . . . من دموع ثقال !

إيه أيتها التى يخلع الليل عليها هذا الجمال ، أحبب إلىَّ بأن

اسمع ـ مائلا نحو ثديك ـ هذه الشكاة المتصلة التى تنوح فى الحوض !

أيها القمر ، أيها الماء المصطفق ، أيتها الليلة المباركة ، أيها الشجر يهتز فى خفة، إنما اكتئابكن النقى مرآة ما أجد من حب! هذه الباقة . . . . . من دموع ثقال ! !

* * *

ثم لندع الآن بودلير، ولننتقل إلى شاعر آخر هو سولى بريدوم Sully Prudhmme . ولنبدأ من شعره بهذه المقطوعة المشهورة التى ترجمتها لك، دون أن أغير شيئاً من وضعها الفرنسى، محملا لغتنا العربية فى ذلك بعض المشقة. وقد أراد الشاعر أن يصور فى هذه الأبيات إعجابه بالعيون الحسان ، وحزنه على ما يملؤها من الظلمة حين يدركها الموت .

العيون

زرق أو سود ، كلهن محبوبات، وكلهن حسان ! عيون لاتحصى رأين الفجر ، قد انطوت عليهن أعماق القبـــور والشمس ماتزال تشرق !

ليال أودع من النهار أبهجن عيوناً لا تحصى ، وهذه النجوم ماتزال تلمع ، وقد ملأت الظلمة تلك العيون !

لهفى ! أتراها فقدت لحظها . . . ! كلا كلا ، ليس الى هذا سبيل ، إنما تحولت الى بعض الوجوه ، نحو سبيل ما يسمونه الغيب !

وكما أن النجوم تفارقنا حين تنحدر ، ولكنها تظل فى السماء ، فللحدق غروبها ، ولكن ليس حقاً أنها تموت !

زرق أو سود كلهن محبوبات ، وكلهن حسان ناظرات من وراء القبر إلى فجر عريض ، تلك الأعين التى أغمضت ماتزال ترى !

* * *

وهذه المقطوعة الأخرى التى يمثل فيها الشاعر فى لفظ عذب وقوة لاحد لها ، طموحه إلى المثل الأعلى وعجزه عن الوصول إليه وثقته بمستقبل الانسان .

المثل الأعلى

القمر مكتمل والسماء مشرقة تملؤها النجوم ، والأرض شاحبة . ونفس الكون تملؤ الفضاء !

وأنا أتبع النجم الأعلى ذلك الذى لايرى ، ولكن ضوءه يعبر الأجواء ، حتى يصل الى حيث نحن فتبتهج به عيون جيل آخر !

فإذا لمع يوما هذا النجم الذى هو أزهى النجوم وأنآها فقل له : إنى أحببته يا آخر أجيال الناس .

* * *

ثم هذه الأبيات التى يشبه فيها الشاعر صدور البكاء عما يستكن فى أنفسنا من الحزن والحنان ، اللذين تهيجهما بعض العواطف ، بتساقط الندى الذى يتكون فى الهواء ثم تسقط به رطوبة الجو !

السهل الندى

أنا ذاهل فى قطرات الندى التى وضعتها يد الليل الرطبة على خمل الزهر تأتلف لآلىء فى خفة !

من أين جاءت هذه القطرات المضطربة ؟ ليست السماء ممطرة ! والجو صحو ! ذلك أنها كانت كلها فى الهواء قبل أن تتكون !

من أين جاءت دموعى ؟ كل شعلة فى أعماق السماء حلوة هذا المساء ! ذلك أنى كنت أضمرهن فى نفسى قبل أن أحسهن فى عينى !

إن فى نفوسنا لحناناً تضطرب فيه الآلام جميعاً ، ورب مسة رفيقة هاجتها فأنبتت فيها البكاء !

* * *

وهذه المقطوعة الأخرى التى يمثل فيها الشاعر أحب أوقات الحب اليه، وأشدها أثراً فى نفسه وأبقاها ذكرى فى قلبه.

ساعات الحب

ليست خير ساعات الحب تلك التى تقول فيها إنى أحبك
إنما هى ساعة الصمت المتصل الذى لا يكاد ينقطع ،
إنما هى فيما بين القلوب من توافق سريع خفيف ،
إنما هى فى القسوة المتكلفة والعفو الخفى !
إنما هى فى قشعريرة الذراع توضع عليها اليد المضطربة.
وفى الصحيفة يقلبها المحبان معاً ، على أنهما لا يقرآنها
ساعة فذة يقول فيها الفم المطبق بحيائه وحده شيئاً كثيراً،
يتفتح فيها القلب على رفق كما ينشق الكم عن الوردة !
يتنسم فيها المحب أرج الشعر فكأنما فاز بأعظم الزلفى !
ساعة الحنان الحلو حين يكون الاجلال نفسه اعترافاً بالحب !

* * *

وقد أطلت عليك، ولا بد مع ذلك من العودة إلى هذين الشاعرين وشعراء آخرين بالنقل عنهم حيناً والتحدث عن شعرهم حيناً آخر .

— ٦ —

بودلير Baudelaire

الحرية والفن

عرضت عليك منذ أسبوعين صوراً شعرية لشاعرين من شعراء فرنسا فى القرن الماضى. وقلت إنى قد أحدثك عن هذين الشاعرين فى فصل آخر، وأنا أريد أن أبر بهذا الوعد، ولكن البر بهذا الوعد ليس بالأمر الهين ولا بالشىء اليسير. وأول صعوبة تعترض سبيل هذا البر أن الحديث عن هذين الشاعرين فى فصل واحد شىء لا سبيل اليه فأمرهما أطول وأدق من أن يلم به فى فصل من الفصول وهما مختلفان فى طبيعتهما ومزاجهما بل فى أغراضهما الشعرية. فلنكتف بأحدهما اليوم وليكن صاحبنا بودلير.

ولكن الحديث عن بودلير فى نفسه عسير شاق. فأمره من الطول والدقة والتعقيد بحيث يضطرنا إلى أن نعرض عن أشياء كثيرة ولا نلم منه إلا بالقليل، وفى هذا القليل نفسه مشقة وعسر. فقد كانت حياة هذا الشاعر شاقة عسيرة مثيرة للخصومات منذ أولها إلى أن انتهت، وما تزال الخصومات قائمة حوله إلى الآن، وأحسب أنها ستظل قائمة إلى مستقبل بعيد.

نشأ هذا الشاعر فى أسرة متوسطة ، كان أبوه معلماً فى احدى المدارس الثانوية فى باريس حين ولد سنة ١٨٢١ . ومات عنه أبوه ولما يتجاوز السادسة من عمره وترك ثروة ليست بذات خطر . وقد تزوجت أمه من ضابط فى الجيش ظل يرتقى حتى انتهى إلى أعلى المراتب العسكرية . ونشأ الطفل فى حجر هذا الضابط ، ولكنه نشأ نشأة لم تخل من القهر والعنف والضيق ، فقد كان يكره هذا الرجل الذى خلف أباه ويتبرم بماله عليه من سلطان . وكان كرهه لهذا الرجل يعرض الصلة بينه وبين أمه لشىء من السوء والاضطراب ، فكان ذلك ينغص عليه حياته ويؤذى نفسه الناشئة ويحبب اليه الوحدة . ويبغض اليه الناس عامة وأسرته خاصة . وكان يكفى أن يتبين ميول هذا الرجل ليبغضها وينصرف إلى نقائضها . وكان هذا الرجل معتدل الميول ، مطامعه تشبه مطامع أوساط الناس . وهى إلى المحافظة والتشدد فيها أقرب منها إلى أى شىء آخر . فكان هذا كافياً أن ينشأ صبياً مبغضاً للمحافظة ميالا إلى التطرف . ولم يكن صبينا تلميذاً نجيباً ولا طالباً بارعا . وانما كان من أوساط التلاميذ والطلاب ظفر بالشهادة الثانوية فى شىء من المشقة والجهد . ولم يكد يتم درسه حتى ظهر

الخلاف عنيفاً بينه وبين أسرته . كانت أسرته تحب أن توجهه نحو الحياة العاملة المنتجة فأعلن هو اليها أن يحترف حرفة الأدب . وأنكر عليه وليه هذا الميل وأصر هو عليه ولكنه كان قاصراً فلم يتمكن مما أراد وأرسلته أسرته إلى الهند فأقام فيها عشرة أشهر . ثم عاد وقد رأى البحر والشرق والشمس وأمماً غريبة وحياة لم يكن له بها عهد ، وأطواراً اجتماعية لم يكن يقدرها .

وما هى إلا أن بلغ رشده واستطاع الاستمتاع بحريته حتى اعتزل أسرته واندفع فى حياة تخالف كل المخالفة ما كان يطمع فيه وليه من المحافظة والاعتدال . عاشر الشعراء والمصورين والمثالين وكتاب القصص ، وأخذ يتكلف من الأزياء والأطوار ما جعله موضع نظر الناس جميعا ، ينظرون اليه دهشين منكرين ، ويسمعون له فيزداد دهشهم وانكارهم لما كان يلقى من ضروب الكلام المخالفة لما للناس من أحكام وقيم وأخلاق وتصور للأشياء . وكان صاحبنا يصطنع الأفيون والحشيش مع جماعة من أصدقائه الفنيين ، فلا يزيده ذلك إلا شذوذاً فى الأطوار . وقد أسرف فى ثروته الضئيلة فأوشكت أن تنضب ، واضطرت أسرته إلى ان تحجر عليه

واضطر هو إلى أن يشتغل بالصحافة الأدبية ليوسع على نفسه وعرض له قصص الكاتب الأمريكى المعروف ادجار پو (Edgard Poe) فكلف به وأخذ فى ترجمته إلى الفرنسية . واتصل بالشعراء الرومانتيك وتأثر بهم ، وكان فى كل هذا ذا شخصيتين متمايزتين : احداهما هذه التى يراها الناس والتى اختصرتها لك فى هذه الأسطر ، والأخرى شخصية خفية عاكفة على نفسها تفكر وتقدر وتألم وتشكو ، ولكن فى سر وتكتم .

وفى سنة ١٨٥٥ أخذت هذه الشخصية الثانية تظهر على استحياء . وذلك حين قدم الشاعر مقطوعات من شعره إلى « مجلة العالمين » فنشرتها مع شىء من التحفظ والريبة والبراءة من التبعة الخلقية لهذا الشعر الغريب .

وفى سنة ١٨٥٧ ظهرت هذه الشخصية فجأة فدهشت لها فرنسا كلها . دهش لها الشعـــراء والفنيون ، ودهش لها أوساط الناس ، واضطربت لها الجماعة الفرنسية ثم أنكرتها وتولت النيابة والقضاء هذا الانكار ، وحكم على الشاعر بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك ، وحكم على ديوانه الذى ظهرت به هذه الشخصية بأن تحذف منه مقطوعات اعتبرت مخالفة للأخلاق

أما الشعراء فقد أنكروا الشاعر ولكنهم أحبوه : أنكروه لأنه استحدث لهم شيئاً جديداً ، وأحبوه لأن هذا الشيء الجديد نفسه كان قيما ممتعاً . واشتد الجدال منذ ذلك الوقت حول الشاعر ومذهبه وأغراضه الشعرية . واضطرب الشاعر نفسه فى الدفاع عن موقفه . فصانع الجمهور حيناً وسكت عن الدفاع حيناً آخر ، واحتج عند بعض الخاصة لمذهبه الشعرى فى صراحة وإخلاص . واختلفت على الشاعر صروف الحياة فلقى ضروباً من اللين والشدة . وانتهى به الأمر إلى بلجيكا فأقام فيها حيناً ثم أعيد مريض الأعصاب إلى باريس فمات فيها سنة ١٨٦٧ .

* * *

هذه خلاصة شديدة الايجاز لحياة بودلير ، وهى على أسرافها فى الايجاز تعطيك منه صورة أقل ماتوصف به أنها غريبة ، وقد أثارت حياة بودلير وآثاره الأدبية مسألة كثر فيها القول وسيكثر فيها القول لأنها من هـــذه المسائل التى لا يتفق عليها ، أو بعبارة أدق من هذه المسائل التى سيظل الخلاف فيها قائماً أبداً بين الفرد والجماعة ، ولا سيما حين يكون هذا الفرد على حظ من التفوق والنبوغ ، هذه المسألة هى مسألة

الحرية والفن . ولكنك لن تقدر هذه المسألة حتى تعلم أن الديوان الذى أثارها ووقف من أجله الشاعر أمام القضاء كان يحمل هذا العنوان الغريب : « أزهار الشر Les Fleurs du mal » وهو يتألف من مقطوعات شعرية قصار ، عرض فيها الشاعر لضروب من الشر المادى والمعنوى ففصلها وحللها ، واستخرج منه فى قوة وفن بديع صوراً شعرية رائعة ، فالمسألة هى : هل يملك الفن هذه الحرية التى تبيح له أن لا يحفل إلا بنفسه وبالجمال من حيث هو جمال ، سواء أوافق فى ذلك ما ألف الناس من أخلاق ونظام ودين ، أم لم يوافقه ؟

أما بودلير فكان فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الخاصة من الأدباء يجيب : نعم ! وأما خصومه وهى الجماعة كلها ومعها نظمها الدينية والخلقية والسياسية فكانوا يجيبون : لا ! وسجل القضاء هذا الجواب . ولكن الأدباء الفرنسيين وعلى رأسهم زعيمهم يومئذ وهو فكتور هوجو أنكروا حكم القضاء واتهموه بالظلم . ولا ننس أن هذا الحكم صدر فى ظل الامبراطورية الثانية ، أى فى جو لم يكن جو حرية وإنما كان جو عسف وجور . على أن من الحق أن نلاحظ أن بودلير حاول فى اثر هذا الحكم أن يصانع الجمهور والجماعة والقضاء

فكان يقول : إن هذه الصور الشعرية لا تعبر عن آرائه وأغراضه فى الحياة، وإنه لا يخالف الناس فيما يرون وما يعتقدون فيما يتصل بحياته العملية والعقلية والشعورية، وإنما هذا الديوان صور فنية قصد إلى إظهارها ، كصانع يجرب نوعاً من الصناعات لا أكثر ولا أقل . كان يقول هذا مصانعة وتقية ، ولكنك رأيت أن هذه الصور كانت فى حقيقة الأمر مثلا لحياته الشخصية الداخلية. فنحن نستطيع الآن أن نقطع بأن الشاعر لم يعمد إلى هذه الموضوعات ولا إلى هذه الصور ليعالجها معالجة موضوعية صرفة كما يقولون ، وإنما هى قطع من نفسه تمثل شخصيته اليائسة البائسة المتألمة بالمحبة ، الراغبة فى الموت المشفقة منه فى وقت واحد . وفى الحق أن هذا الديوان يدور كله حول أشياء ثلاثة هى : الحب والألم والموت . والشاعر لا يكاد يحس شيئاً من هذه الأشياء دون أن يحس معه الشيئين الآخرين . فهو إذا ذكر الحب ذكر معه الألم والموت، وهو إذا ذكر الموت ذكر معه الألم والحب، وهو فى كل ذلك حر جرئ مجازف يتخير أبشع الصور وأقبحها وأشدها تأثيراً فى النفس من هذه النواحى البشعة القبيحة . وهو مادى التصور، لحسه المادى أثر قوى فى شعره ولا سيما حس اللمس والشم

والبصر ، فهو يعرض عليك هذه الصور البشعة التي يحسها الشم أو اللمس أو البصر في الأجسام الهالكة المتحللة و « أزهار الشر » هذه التي يشتمل عليها ديوانه أزهار فيها جمال قوي رائع ، ولكنه في الوقت نفسه بشع مخيف تضطرب له النفس وتشمئز في كثير من الأحيان فهناك مسألتان يثيرهما شعر بودلير : إحداهما قدمتها لك وهي : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة بالقياس الى الأخلاق والسياسة والدين وما اليها من النظم الاجتماعية ! وجواب هذه المسألة طبيعي : فأما أصحاب الفن فيقولون نعم ، لانهم يطالبون بحريتهم في أقصى حدودها . كما يطالب العلماء بحريتهم العلمية في أقصى حدودها وأما الحكومات والبرلمانات وحماة النظم الاجتماعية والسياسية فيجيبون : لا . وجوابهم هذا يختلف باختلاف حظوظهم من المحافظة والاعتدال والتطرف . وما أرى الا أن هذا الخلاف سيظل أبداً .

ولست أحب أن أعرض رأيي فيه الآن ، ولا أن أقول فيه نعم أولا ، فلست بحمد الله فنياً ، ولست بحمد الله من حماة النظم الاجتماعية على اختلافها ، وانما أنا أحد الذين يشهدون ، وحسبي أن أطالب للعلماء بحريتهم العلمية .

أما المسألة الثانية التى يثيرها شعر بودلير ، فأجل من هذه المسألة خطراً ، وأخلق منها بعناية الكتاب والأدباء عندنا . وكم أحب أن أعرف رأى هيكل والعقاد . وهى : هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ويستخلص منه صوراً فنية جميلة وبعبارة أدق وأوضح : هل فى الشر جمال يصلح موضوعاً للفن ؟

وأنا أدع للفنيين من الشعراء وغيرهم الجواب على هذه المسألة .

ممنوع التعليق على أي شيء أو فكرة مذكورة في الكتاب

— ٧ —

النثر العربى فى نصف قرن

الرأى الشائع بين المحافظين من أهل الأدب العربى وأصحاب العلم به : أن النثر أيسر من الشعر وأن اصطناعه شىء سهل لا يكلف صاحبه عناء ولا مشقة ، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر ، ولهم فى ذلك مباحث طوال وكلام كثير ، تستطيع أن تلهو به إذا نظرت فى كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبهه من الكتب . وما أظن أن رأى الأدباء تغير فى هذا الموضوع . فهم مايزالون يعتقدون أن الشعر أعسر من النثر وأبعد منه متناولا ، ثم مايزالون يعتقدون أن النثر أقدم من الشعر وجوداً ، وهم معذورون فظواهر الأشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به .

فالنثر مطلق لاقيد فيه ، والشعر مقيد بالوزن والقافية ، والنثر مشبه فى إطلاقه لكلام الناس فى حياتهم اليومية وحوارهم المألوف . وإذن فالناس يتكلمون نثراً ، وهم يتكلمون قبل أن يشعروا ، وهم لايجدون مشقة فى الكلام ، وهم يجدون

فى نظم الشعر مشقة وعناء ، وإذن فالنثر أقدم من الشعر وأيسر وأدنى منالا . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب إلى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون أن النثر كان فى العصور القديمة أكثر من الشعر ، ولكن ما حفظ من قديم الشعر أكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لاعسر فيه فالشعر أشد عسراً من النثر فى الانشاء ولكن الشعر أدنى الى الحافظة وأسلس لها قياداً من النثر . أليست القيود التى تأتيه من العروض والقافية تقربه من الحافظة وتجعل فى استظهاره لذة وراحة لانجدهما فى استظهار النثر ؟ فاذا كان مانرويه من نثر العرب قبل الاسلام قليلا فليس ذلك لأنهم لم ينثروا بل لأنهم لم يكونوا يكتبون ، ولأن حافظتهم لم تكن تطاوعهم إلى حفظ النثر واستظهاره فضاع نثر العرب الجاهليين إلا أقله ، وبقى شعر العرب الجاهليين إلا أقله .

كذلك كان يقول القدماء ، وكذلك مايزال يقول المحدثون ولكن شيئاً من التفكير والنظر فى آداب الأمم المختلفة يضطرنا الى أن نعدل عن هذا الرأى القديم ، فمن العجيب أن تتفق الأمم كلها على أن تحفظ من شعرها القديم أكثر مما تحفظ من نثرها فى عصورها الأولى ، ومن العجيب أيضاً

أن تتفق الأمم كلها فى ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على الشعر . ومن العجيب بعد هذا وذاك ألا تضعف ذاكرة هذه الأمم إلا عن النثر القديم ، فأما النثر الذى يظهر بعد أن تبلغ الأمة من الرقى العقلى والمدنى طوراً ما فان ذاكرتها تقوى عليه وتنهض باستظهاره كما تقوى على الشعر وتستظهره. الحق أن الأمم إذا لم ترو شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك سبب إلا أنها لم يكن لها نثر فى أطوار حياتها الأدبية الأولى ، وإذا روت كثيراً من شعرها القديم فلأنها كان لها شعر فى أطوار حياتها الأولى هذه ، أى أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر ، وأنه أيسر منه وأدنى منالا . وأنت إذا نظرت فى تاريخ الأمم القديمة والحديثة ، وإذا نظرت فى حياة الأمم التى لم تكد تتحضر بعد فسترى أنها كلها تسبق إلى الشعر ولا تهتدى إلى النثر ولا تظفر به إلا بعد زمن طويل وجد غير قليل ورقى فى الحضارة ، وتقدم فى الحياة العقلية لا بأس بهما . تجد ذلك عند اليونان وتجده عند الرومان ، وتجده عند العرب وتجده عند الأمم الأوربية الحديثة .

وحيثما وجهت فى القبائل التى لم تستقر بعد فسترى كلاما منظوماً ، له أوزانه وقوافيه دون أن نجد لها هذا النثر الذى

يظن رجال الأدب أنه أقرب من الشعر منالا . ذلك أن النثر ليس أقرب من الشعر منالا ، فى حقيقة الأمر ، ولعل حظه من العسر ليس أقل من حظ الشعر إن لم يكن أكثر منه . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال أسبق إلى النمو فى حياة الأفراد والجماعات من العقل ، خيال الصبى والشاب أقوى من عقله وخيال الجماعات غير المتحضرة أقوى من عقلها ، فليس عجيباً أن يتكلم الخيال قبل أن يتكلم العقل وليس عجيباً أن يوجد الشعر قبل أن يوجد النثر، وليس عجيباً أن يكون الشعر أيسر تعاطياً وأدنى تناولا من النثر . فالخيال إن تقيد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد بشىء آخر ، هو حر طلق يمضى حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء ، لا كما تشاء الأشياء أو كما تشاء الطبيعة ، أما العقل فقد يطلق نفسه من قيود الوزن والقافية ولكن ما أثقل القيود والأغلال تأخذه وتعوقه عن الحركة ولا تأذن له بالتقدم إلا فى بطء وأناة ، هو لا يطير ولا يحسن أن يطير ، وهو لا يعدو ولا يستطيع أن يعدو ، فاذا حاول الطيران أو العدو فليس هو العقل الخالص وإنما هو العقل قد غلب عليه الخيال ، هو لا يطير ولا يعدو ولكنه لا يسعى فى هدوء ،

وهو لا يصور الأشياء كما يشاء ولكنه يقبل صورها كما هى، هو مقيد والخيال مطلق، وهو بطىء والخيال سريع، فليس عجيباً أن يتأخر نموّه عن نموّ الخيال، وليس عجيباً أن يكون إنتاجه أعسر وأقل من إنتاج الخيال، وليس عجيبا آخر الأمر أن يكون النثر الذى هو لغة العقل أحدث وجوداً من الشعر الذى هو لغة الخيال

ولكن مالى ولهذا كله ؟ وأين أنا من الموضوع الذى أريد أن أكتب فيه ، وهو النثر العربى فى هذا العصر الذى نحن فيه ؟ وما هذه المقدمات الطويلة ؟ . أليس القارىء يحس أنى أطيل عليه وأثقل فى غير نفع ولا جدوى ؟ بلى ، ولو كنت من أصحاب الخيال لما أطلت ولا أثقلت ولا احتجت الى مقدمات فالخيال كما قلنا خفيف حر يأتى حيث شاء وكيف شاء ولكننى أريد أن أكتب نثراً ، أى أريد أن أحمل عقلى على أن يتحدث إلى عقل القارىء ، وقد قلنا إن العقل رزين بطىء لا يطير ولا يعدو ، ولكنه يسعى فى أناة فليسع القارىء معى فى أناة أيضاً ، ولينتقل معى من كل هذه المقدمات الى حيث أريد أن أنتقل به . ليلاحظ أن هناك صلة قوية جداً بين الحياة العقلية وحظ النثر من القوة والضعف، من الرقى والانحطاط ، من البرد والحر والفتور . متى بلغ النثر اليونانى أقصى ما استطاع أن يبلغ

من الرقى؟ فى عصر سقراط وأفلاطون . ومتى بلغ النثر العربى أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى ؟ فى عصر ابن المقفع والجاحظ وأشباههما . أى أن رقى النثر كان عند اليونان والعرب رهيناً برقى الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول وهو كذلك عند الرومان، وهو كذلك فى أمم أوربا الحديثة، وهو كذلك فى مصر. إن الذين يريدون أن يؤرخوا الآداب العربية فى هذا العصر الحديث خليقون ألا يقطعوا الصلة بين الأدب والعلم، وألا يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل استقلالا تاماً عن الحياة العلمية ، بل هم خليقون أن يعتقدوا أن ليست هناك حياة أدبية وحياة علمية ، وانما هناك حياة عقلية تظهر مرة فى شكل أدبى هو النثر الفنى وتظهر مرة أخرى فى شكل علمى، هو هذا النثر الذى نجده فى كتب العلم الخالص ، أقول إن الذين يدرسون تاريخ الأدب فى هذا العصر الحديث خليقون أن يقدروا تأثير العلم والفلسفة فى هذا الأدب وفى النثر بنوع خاص ، فليس يمكن أن يكون من أثر المصادفة وحدها أن تطرد الصلة بين الرقى العلمى الفلسفى ورقى الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص ، وفى الحق أنك حين تقرأ هذا النثر الذى كان يكتب فى الشرق

العربى فى أول القرن الماضى تشعر بالفساد الفنى الأدبى وحده ، ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ماتقرأ من المعنى القيم وباعدام هذه العقول التى يترجم عنها هذا النثر ، وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفنى الذى يتصف به النثر العربى فى كل العصور التى ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية . لا يخدعنك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعى والبيانى ، من سجع وتكلف فى الاستعارة والمجاز فى التشبيه والكناية والتورية وما إليها ، فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر الغنى المثرى . إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان فى غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطرى فهى تتكلف الزينة ، وأعوزها حر الحلى فهى تخدع الناس ببهرجه وزائفه ، ومن هنا تستطيع أن تلاحظ أن النتيجة القيمة التى جاء بها القرن الماضى فى النثر العربى إنما هى إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية ، وهو لم يطلقه من هذه القيود عبثاً وإنما أطلقه منها لأنه منحه هذا الروح القوى الذى مكنه من أن يستقل بنفسه ويستهوى العقول والألباب قليلا قليلا ، وهذا الروح القيم الذى بث الحياة فى النثر العربى وألق

عنه هذه اللفائف البالية التى كانت تثقله وتعوقه عن الحركة إنما هو المعنى، وهذا المعنى إنما جاء من الحياة العقلية التى أنشطها العلم والفلسفة فى القرن الماضى. وليس أدل على صدق ما نقول من أنك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته من هذه الأغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجاءة وإنما كانا رهينين بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب أى بين العقل المعدم والعقل الغنى. مؤلم جداً هذا الشعور الذى تجده حين تقرأ الجبرتى وأمثاله من الذين كانوا يكتبون فى أول هذا العصر الحديث. ولكن توسط القرن الماضى واقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبه شىء من الألم كثير، لأنك تقرأ كلاماً يدل على شىء، ويريد بنوع خاص أن يدل على شىء، ولكنه لا يكاد يبلغ ما يريد لأن حظه من المعنى قليل من جهة لأنه لم يستطع بعد أن يخلص من تلك القيود والأغلال من جهة أخرى. ثم صِل إلى الثلث الأخير من القرن الماضى. واقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام أيضاً فسيعظم حظك من اللذة وستشعر بشىء من الألم، ولكنه ليس هذا الألم الذى تجده حين تشهد البؤس والاعدام وإنما هو نوع آخر من الألم تجده حين تشهد التكلف والتصنع، وحين نحس أن هذه المعانى،

لو اطلقت من قيودها وأرسلت على سجيتها لأحدثت فى نفسك من البهجة واللذة مالا تستطيع أن تحدثه وهى مثقلة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان .

كل هذا يدل على أن النثر العربى قد كان ثقيلا بغيضاً - أول القرن الماضى - لأنه كان قليل الحظ من الحياة العقلية لا أثر فيه لشخصية الكاتب ولتفكيره ، أو قل لأنه كان فقراً كله ثم أثرى العقل الشرقى شيئاً فشيئاً فدبت الحياة فى النثر بمقدار هذه الثروة العقلية ، وأخذ هذا النثر كلما أحس حياته وقوته يجتهد فى أن يخلص نفسه من قيود الفقر وأغلال البؤس ، حتى انتهى إلى حيث هو الآن من حرية وانطلاق. فالنثر إذن مدين فى هذا العصر بحريته وانطلاقه ورقيه الفنى كما كان مديناً فى غير هذا العصر بهذه الأشياء كلها للعلم والفلسفة، وما أحدثا من تنشيط العقل ورده إلى اليقظة بعد النوم وإلى الحركة بعد الجمود . ومن الحق على الكتاب المجيدين أن يعرفوا ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وأن يقدروا ما للذين نقلوا إليهم العلم والفلسفة عندهم من يد، فلولا المترجمون فى العصر العباسى ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ ، ولولا المترجمون فى هذا العصر الحديث ما غادت للنثر العربى حياته

القوية النشيطة التى نريد أن نتحدث عنها بعض الحديث .

أخشى أن أكون مسرفاً بعض الشئ . فان حياة النثر العربى فى هذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، وإنما جاءت من قبلهما ومن قبل شئ آخر هو الأدب العربى القديم فى عصوره الراقية . فقد كان الكتاب وأهل العلم فى أوائل القرن الماضى يجهلون أو يكادون يجهلون قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع ، وكان الذين يلمون منهم بهذا الأدب القديم لا يكادون يفهمون ما يلمون به على وجهه ، وكانوا لا يحاولون أن يتأثروه أو يحتذوه . أما الآن فقد تغير هذا كله وعرف الأدب العربى القديم . وعادت الحياة إلى الشعر العربى والنثر العربى ، فنحن نقرأهما ونحفظهما وننقدهما ونتأثرهما ولهذا كله حظ عظيم من التأثير فى وجود ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذى رد الحياة إلى الأدب العربى القديم ؟ وما الذى ذكّر كتاب الشرق وشعراءه بهذا الأدب وما الذى حملهم على قراءته وروايته ونقده واحتذائه ؟ إنما هو هذا الروح العلمى الذى جاءنا من الغرب ونقله إلينا المترجمون . هذا الروح العلمى هو الذى أنشط العقول ، وحملها على أن تفكر فى القديم والحديث

وعلى أن تغذو نفسها بهما معاً . وإذن فأنا لم أسرف ولم أتجاوز الحق حين رأيت أننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين أوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ . ولقد أحب أن أعرف حظ البلاد الشرقية فى ايجاد هذه الصلة الخصبة القيمة بين الشرق والغرب فلا أجد فى ذلك مشقة ولا عسراً ، فالبلاد التى ردت الى الشرق حياته العقلية والأدبية فى هذا العصر . هى بعينها البلاد التى أحيت الشرق فى العصور الأولى حياة قوية مطردة لا عارضة ولا متكلفة . نعم لم يستمد الشرق العربى حياته قديماً من شمال أفريقية ولا من جزيرة العرب بل لم يستمدها من العراق الا بمقدار ، وإنما استمد حياته الصالحة الخصبة فى نظام واطراد من مصر والشام . من هذين القطرين أزهرت الحضارة الشرقية الخاصة ، ومن هذين القطرين انبعثت الحضارة إلى أطراف الشرق ، وفى هذين القطرين أثمرت الحضارات الأخرى التى نشأت من غيرهما وسيطرت على الشرق حيناً طويلا أو قصيراً كحضارة اليونان والرومان والعرب ، وإلى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الأخرى فوجدت فيهما ملجأ أميناً ومأوى حصيناً نعم وفى هذين القطرين نشأت

النهضة الشرقية فى هـــذا العصر الأخير : نشأت فى مصر ونشأت فى الشام أوائل القرن الماضى ، واستبق القطران فيها استباقاً عظيما حتى أصبح من العسير أن نحدد الحظ الذى ظفر به كل منهما فى هذه النهضة ، فبينما كان أمراء مصر من الأسرة العلوية يجدّون فى إنهاض مصر وتقوية الصلة بينها وبين الغرب . وإرسال الوفود العلمية إلى أوربا واستقدام العلماء الأوربيين إلى مصر ، وإقامة المعاهد العلمية المختلفة . ونقل الكتب فى ألوان العلوم والفنون كان المسيحيون من أهل الشام يتصلون بأوربا اتصالا قوياً لأســـباب مختلفة : منها السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث فى بلاد الشام حركة مشبهة جداً لهذه الحركة التى كان يستحدثها الأمراء فى مصر ، وكانت تنتج عن هاتين الحركتين فى مصر والشام نتيجة واحدة : هى نشاط العقل الشرقى واستئنافه الحركة والحياة . ولكن من الحق أن نلاحظ أن مظهر النهضة كان فى مصر علمياً عملياً أو أقرب إلى العلم والعمل منه إلى أى شىء آخر ، بينما كان مظهر الحركة فى الشام أقرب الى الأدب واللغة ، وأدنى اليهما منه إلى أى شىء آخر . فأنت تستطيع أن تجد فى مصر فى أثناء القرن الماضى العلمـاء الذين تفوقوا فى

الطب والرياضة والطبيعة ، ولكنك لا تكاد تظفر فيها بأديب يعدل هؤلاء الأدباء الذين كثروا فى الشام . وأنت تستطيع أن تجد فى الشام أدباء تفوقوا فى الأدب واللغة واستحدثوا فيهما الجديد النافع ، ولكنك لا تجد فى الشام مثل ما تجد فى مصر من العلماء . ومهما يكن من شئ فقد أرادت ظروف الحياة التى أحاطت بالقطرين أن يلجأ النشاط السورى فى الأدب واللغة إلى مصر منذ أواخر القرن الماضى ، وأن تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية فى الشرق كله ، فانتقل أدباء السوريين وعلماؤهم إلى مصر ووجد نشاطهم فيها مالم يكن يجده فى الشام من القوة والتشجيع فآتى ثمرته الباقية الخالدة وأصبح النثر العربى الآن أصدق مزاج التأم فيه الروحان السورى والمصرى التئاماً لا سبيل إلى تفريقه. ولست أقول هذا الكلام عبثاً ، ولا أطلقه من غير دليل ، فليس من شك فى أن الصحافة صاحبة الحظ الموفور فى نشر الأدب والعلم وإنشاء النثر الحديث ، وأنا حين أذكر الصحافة لا أريد بها اليومية دون الأسبوعية أودون الشهرية إنما أريد الصحافة كلها ، والصحافة سورية مهما يكن من شئ ، ولعل أحداً لا يستطيع أن يناقش فى أن الصحافة المصرية

الخالصة حديثة العهد بالوجود وأنها على ما بلغت من قوة الأيد وشدة الأسر فى هذه الأيام لم تستطع أن تسبق الصحافة السورية ولا أن تتفوق عليها .

وحسبنا أن نلاحظ أن الصحافة المصرية إن كانت قد بلغت من القوة فى هذه الأيام حظاً موفوراً ، فهى بعد لم تستطع أن تتجاوز السياسة ، وهى إن أثرت فى الأدب فمن طريق السياسة ومن السعى إلى السياسة ، فأما الصحافة الأدبية والعلمية الخالصة التى تتناولها لتقرأ فيها فصلا من فصول الأدب ، أو مبحثاً من مباحث العلم ليس غير ، فما زالت إلى الآن سورية وهى ترحب بضيوفها من المصريين وغير المصريين ، وتجد فى تضييفها إياهم حياة وقوة ، ولكنها على كل حال سورية .

والآن وقد ألممنا بأصول هذه النهضة النثرية العربية فهل نستطيع أن نشخصها تشخيصاً صحيحاً وأن نصل إلى المميزات التى تفرق بين هذا النثر الذى نكتبه الآن والنثر الذى كان يكتب منذ خمسين سنة ؟ أعتقد أن ذلك ليس عسيراً فقد كان النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيه معنى قيم يحدث فى نفسك ما تطمح إليه من لذة علمية وفنية ولكنه

لم يخلص من تلك الأغلال والقيود التى كان يرسف فيها النثر القديم . فهو مقيد بالسجع متكلف للاستعارة وألوان البديع والبيان ، ولكنه لم يكن يتكلف هـذه الألوان بحكم الفقر والاعدام ، وانما كان يتكلمها بحكم العادة ولم يكن بدٌّ فى ذلك الوقت الذى أحسَّ العقل الشرقى فيه حريته وشخصيته من أن تشب الحرب ضروساً بين المذهبين المختصمين دائما فى النثر : مذهب أصحاب القديم ومذهب أصحاب الجديد . وقد شبت بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبوها لأنهم كما رأيت أصحاب الصحافة ، ولأنهم كما رأيت أقرب إلى النشاط فى الأدب منهم إلى النشاط فى غيره ، وأنت تعلم أن الصحفى مضطر بحكم صناعته وما تستتبعه من العجلة والتحدث إلى الجمهور إلى أن يتحلل من هذه القيود البديعية ، ويتخلص من هـذه الأغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون أيضاً ، واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان أن يكتبوا فصولاً لا تخلو من آثار القديم ؛ فيها السجع وفيها تكلف البديع والبيان ، ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب فى أوائل القرن الماضى وفى منتصفه أيضاً ، فيها حرية لفظية

ومعنوية ظاهرة ، وفيها اجتهاد فى اختيار الحر من اللفظ واجتناب المبتذل، وفيها طموح إلى الجديد لم يكن يألفه الكتاب المصريون من قبل . وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة فى مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب ، واشتدت حركة إحياء الأدب العربى فى القطرين وقرأ الناس العلم والأدب الغربيين فنشطت عقولهم وقرأوا الأدب العربى القديم فاستقامت ألسنتهم وأقلامهم. ولم يكد ينتهى القرن الماضى حتى كان الشعر قد خلص من أغلال البديع خلوصاً تاماً ، وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد فى النثر قد تطور تطوراً غريباً فأصبح أنصار القديم لا يستمسكون بركاكة الجبرتى ولا يحرصون على بديع ابن حجة وإنما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من أمصار البلاد العربية فى العصر العباسى ، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبراءته من العامية والابتذال. وأصبح أنصار الجديد لا ينفرون من البديع والبيان، فقد استراحوا من البديع والبيان وانما ينفرون من الاغراق فى هذا الأدب العربى القديم ويطمحون الى تقليد الأدب الغربى الحديث واصطناع الألفاظ الأوربية الأعجمية. اشتد هذا الجهاد بين أنصار القديم والجديد فى العقد الأول من

هذا القرن، وكان السوريون بنوع خاص من أشد الناس نصراً للجديد، وكان شيوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الأزهر والمدارس المدنية لأنهم تخرجوا من دار العلوم من أشد أنصار القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد إمعاناً فى الاتصال بأوروبا والتغذى بما فيها من علم وأدب . ثم كانت حركة وطنية فى مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها اندفاعاً شديداً وكان الشبان قوة هذه الحركة، ومن الذى يستطيع أن يأخذ الصحف المندفعة فى حركاتها السياسية بملاحظة القديم وانتقاء الألفاظ؟ ومن الذى يستطيع أن يأخذ الشباب الثائر بأن يتقيد بالقاموس أو لسان العرب؟ ولأمر ما تجاوزت هذه الحركة السياسية مصر وكانت الثورة فى قسطنطينية وأعلن الدستور العثمانى وردت الحرية إلى الأقطار العربية العثمانية فكان لهذا كله أثر قوى فى الأدب العربى ، وفى النثر منه بنوع خاص، وكان هذا كله صدمة عنيفة لأنصار القديم من الكتاب والشعراء . ذلك لأن الحركات السياسية نقلت الكتابة من بيئتها القديمة إلى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لو لا هذه الحركات ، فقد كانت الكتابة - كما كان العلم - حظاً مقصوراً على بيئة خاصة من الناس ثم أصبحت الكتابة كما أصبح العلم

حظاً شائعاً فى الناس جميعاً . ومن ذا الذى يستطيع أن يأخذ الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقيد بمعاجم اللغة وأساليب القدماء ؟ وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال والمخالطة بين الشرق والغرب وانتهيا إلى حد لم يعرف من قبل ثم انتهت هذه الحرب ونتج عنها ما نتج من هذه الثورة السياسية العامة فى الشرق العربى كله ، وأثر هذا فى حياة الناس على اختلاف فروعها فلم يكن بد من أن يؤثر فى الأدب أيضاً ، وفى النثر بنوع خاص . الحق أن الحرب ونتائجها وقفت نمو الحركة الأدبية فى الشرق العربى ، وأن هذه الثورة السياسية شغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية حيناً وقصرت جهودهم على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت فى النثر العربى آثاراً لن تمحى قبل عصر طويل ، جعلته حاداً عنيفاً واستحدثت فيه فنوناً مختلفة وأساليب متباينة من الطعن والخصومة لم يعرفها النثر العربى من قبل . ثم لم تلبث السياسة نفسها أن استحدثت حياة أدبية جديدة فى النثر ظهرت منذ حين وآتت ثمراً طيباً ، ولكنها لم تصل إلى غايتها . ومن الحق أن نقول إن مصر قد اختصت بهذه الحركة . ولكل شىء خيره وشره وقد كان للخصومة الحزبية فى مصر شرورها

وآثامها ، ولكن لها فى الوقت نفسه حسناتها ومنافعها ، وإنما نعنى منها بالحسنات والمنافع الأدبية .

وأول ما نلاحظ من هذه الحسنات أن الجهاد اشتد بين الأحزاب فاضطرها إلى أن تتنافس فى اكتساب الجمهور وكانت الصحف أجل الأدوات لهذا التنافس خطراً ، وكان الأدب من أهم الأسباب التى اتخذتها الصحف وسيلة الى التنافس. أخذت الصحف تنشر الفصول الأدبية تقلد فى ذلك صحف أوربا ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم إلى قراءة ماتكتب فى السياسة ، وما هى إلا أن أصبحت الكتابة فى العلم والأدب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور . وأصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف إلا إذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولا فى العلم والفلسفة والأدب والفن . والصحف تتجاوز مصر وتنبثُّ فى الأقطار العربية كلها ، فما أسرع ماتتأثر هذه الأقطار بهذه الفصول الأدبية . فالأدب وحده هو الذى يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حراً بريئاً منتجاً بعد أن فرقت بينها السياسة .

ولست أذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التى استحدثتها

السياسة فى الصحف الأسبوعية ، فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذى نحن بازائه وهو النثر الأدبى الفصيح .

هذا النثر الأدبى الفصيح ان امتاز الآن بشىء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين أنصار القديم والجديد قد انتهت أو كادت تنتهى إلى قدر لن يعدوه المختصمون . ذلك أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لاترضى بدونهما : الأول أن يقدّم اليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقى الأسلوب برىء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثانى أن يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة ، قيما فى معناه كما هو قيم لفظه ، حر فى معناه كما هو حر فى لفظه أيضاً ، ومعنى هذا أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص فى حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لأنها لا تريد أن تمحو شخصيتها وتحرص على الجديد لأنها لا تريد أن تكون أقل من الغرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذى قدمت وصفه هو وحده الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد أنصار ، ولكن أولئك وهؤلاء قلة ضئيلة فى حقيقة الأمر ، لا يكاد

يعبأ بها أحد ، أولئك لا يزالون يستمسكون بالصناعة اللفظية ، ويسرفون فيها إسرافا شديداً ، فينصرف عنهم الناس لأنهم لا يفهمونهم ، ولا يجدون عندهم ما يريدون . وهؤلاء يزدرون الألفاظ ويفنون شخصيتهم الشرقية العربية فى كتاب الغرب فينصرف عنهم الناس ، لأنهم لا يجدون عندهم هذه الشخصية الشرقية العربية ، التى يكلفون بها ويناضلون فى سبيل تحقيقها وإكراه أوربا على أن تعترف لها بالوجود .

أظنك تعفينى من أن أتجاوز هذا القدر العام إلى التحدث اليك عن شخصيات الكتاب الناثرين فى مصر وغير مصر وآثار هذه الشخصيات فى أساليبهم النثرية فقد أطلت وأسرفت فى الاطالة ولو ذهبت أحدثك عن شخصيات الكتاب وأساليبهم لما فرغت الآن ، وما أشك فى أن «المقتطف» حريص على أن أفرغ .

— ٨ —

البؤساء

كنت أريد أن أحدثك اليوم عن شاعر عربي قديم . ولكني وجدت أمامي شاعراً عربياً حديثاً، فآثرت أن يكون هذا الشاعر موضوع حديث هذا الأسبوع .

الحق أني وجدت أمامي شاعرين : أحدهما فرنسي هو فيكتور هوجو . والثاني مصري هو حافظ ابراهيم. ولكني لا أريد أن أتحدث عن فيكتور هوجو اليوم . لأن كتاب البؤساء ليس من كتبه القيمة ، التي تستحق الاعجاب أو تستعد لطول البقاء .

ليس البؤساء من هذه الآثار التي صدرت عن فيكتور هوجو فمثلت شخصيته القوية ونبوغه العظيم . وان كان من كتابنا المصريين الذين يجهلون الفرنسية ولم يقرأوا فيكتور هوجو إلا مترجما إلى العربية أو الانجليزية من كتب منذ أسابيع يزعم أن فيكتور هوجو ليس ذا قيمة ولاخطر . ليس البؤساء من هذه الكتب التي نقرؤها فنعجب بكاتبها ،

ونشعر بأن له على نفوسنا سلطاناً وفى قلوبنا تأثيراً عظيما ، وإنما هو كتاب كغيره من الكتب فيه جودة وحسن ، وفيه اطالة واملال ، فيه صحف قيمة ، وفيه ثرثرة لاتفيد . ولست أدرى لم اختاره حافظ وكلّف نفسه ألوان الجهد والعناء فى ترجمته ! فالحق أن شاعرنا قد تكلف جهداً عظيما وعناء شديداً فى هذه الترجمة ، ولست أدرى لم اختاره ؟ بل ربما كنت أدرى ، فقد أذكر لن قد كان البِدْع فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال . والافتنان فى شكوى الناس والزمان . كان ذلك بدعا فى العقد الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروجه .

فى هذا العصر اختار حافظ كتاب البؤساء ، فترجم منه جزءاً . ولكن الأيام دارت دورتها ولم يتح لهذا المزاج السيىء المظلم أن يتأصل فى النفوس أو يسيطر عليها . فلو أن حافظاً أهمل البؤساء ولم يمض فى ترجمته لما سأله سائل ، ولا لامه أحد . ولكنه بدأ عملا فأراد أن يتمه وهذا حق له وواجب عليه ، وليس يخلو من نفع جم وخير كثير .

لاأتحدث اليوم اذن عن فيكتور هوجو ، ولا عن كتاب البؤساء . وانما أتحدث عن حافظ وعن ترجمته لكتاب

البؤساء . ولست أخفى عليك أن هذا الحديث ليس بالسهل ولا باليسير ، فان لحافظ فى نفسى مكانته العالية فى نفس كل مصرى قرأ شعره الجزل ونثره المتين . وله فى نفسى مكانة خاصة هى مكانة الصديق الذى أحبه وأجله وأطمئن إلى خلقه وأرتاح إلى حديثه العذب .

لحافظ فى نفسى هاتان المكانتان ، فأنا متهم حين أثنى عليه ومكرِه لنفسى حين أنقده . ومع ذلك فمن حق كتابه على الثناء والاعجاب . فلست تقرأ فى كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى هذه الأيام أسلوباً أمتن ولا تركيباً أرصن ولا لفظاً أحسن اختياراً وأشد ملاءمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى هذا الجزء من كتاب البؤساء .

ليس فى ذلك شىء من الاسراف أو الغلو بل هو دون ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن تقول فى كتاب ظهر فى هذه السنة ولهذا الجيل ، فاذا قرأته استيقنت أنه لم يكتب فى هذه السنة ولا لهذا الجيل !

ماذا تقول فى كتاب لا تكاد تمضى فى قراءته حتى تشعر بأنه إنما كتب فى غير هذا العصر . كتب أيام كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بعد أسمالَ البداوة ، ولم ترتدِ حلل

الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الحداة والماتحون ! أيام كانت لغة الأشداق الواسعة العريضة ، والشفاه الضخمة الغليظة لا الأفواه الضيقة الظريفة ، ولا الشفاه الناعمة الرقيقة ، ثم هو يصف بهذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعانى حضرية . عواطف ومعانى نشأت فى أوروبا وفى نفس فيكتور هوجو ! يصف بلغة رُؤْبَةَ والعَجّاج وذى الرمة خواطر كتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر !

ليس فى ذلك إسراف ولا غلو ، فقد كنت أظننى أعرف العربية وأستطيع أن أقرأ فيها كتابا ولا سيما من هذه الكتب المعاصرة ، دون أن أحتاج الى بحث كثير فى القاموس . فلما قرىء على البؤساء عرفت أن من تواضع لله رفعه ! وأقسم لولا هذا الشرح الذى تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت فى قراءة الكتاب إلا مع شى غير قليل من المشقة والعناء . ولكنى لا أدرى أمزية هذه أم نقيصة ؟ ولعلها مزية ونقيصة فى وقت واحد . مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وعى لغته وأحسن الالمام بها ، والانتفاع واستظهر . وعلى أنه قد كدوعنّى نفسه فى تخير هذه الألفاظ الشاردة وتقييدها وحسن الملائمة بينها وبين هذه المعانى والعواطف الحضرية المألوفة . وعلى أنه

حريص كل الحرص على أن يحتفظ للغتنا العربية بروائها القديم وجمالها البدوى التليد . وعلى أن يعصمها من السقوط والاسفاف .

ونقيصة لأنها تكلف ولأنها عقبة تحول بين القارىء وبين الفهم ، ولأنها لاتلائم روح العصر ، ولأنها لاتعين على ما قصد اليه من نشر آراء فيكتور هوجو وإذاعة عواطفه بين شعبنا المصرى الذى لايعرف لغة رؤبة والعجاج منه إلا نفر يحصون. ولقد كلمت حافظاً فى ذلك فقال إنى عملت للخاصة . وكنت أظن أنى من هؤلاء الخاصة ، فاذا بينى وبينهم أمد بعيد ! وأحسب أن خاصة حافظ لايوجدون إلا فى خياله !

أحمد لحافظ هذه اللغة الغريبة الجزلة ، لأنها تدل على عناء وجهد عظيمين ، وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد غير نافع وهذا العناء غير مفيد . وما رأيك فى أنى أقرأ الأصل الفرنسى فأفهمه بلاعناء وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها إلا كارهاً ! ولست أتقن الفرنسية اتقانا خاصاً ولا أجهل العربيـــة جهلا خاصاً ، فكثير من الناس يفهمون البؤساء بالفرنسية فهماً يسيراً ويفهمون البؤساء بالعربية فهماً عسيراً ، ولقد قال لى أحد الكتاب المجيدين : أليس غريباً أن يكون

ابن المقفع أدنى الى افهامنا من حافظ !

أيسمح لى حافظ بعد هذا أن آخذه بعيبين عظيمين : آسف جداً لأنى مضطر الى آخذه بهما ؟ فله علينا حق الانصاف ولكن للعلم والنقد حقهما من هذا الانصاف أيضاً .

الأول أن ترجمته ليست كاملة ، فهو يلخص ولا يترجم . ولست أريد أن أطيل فى ذلك وإنما ألفته إلى أنه قد أهمل الصفحة الأولى من الكتاب إهمالا تاماً فلم يشر اليها بحرف وهذا نصها :

« لعل القارىء قد أحس أن « مسيو مدلين » لم يكن الا « جان فلجان » لقد نظرنا فى أعماق هذا الضمير ، وقد آن أن نعيد النظر فيه ، ولن نفعل ذلك دون أن ينالنا الانفعال ، ويملكنا الاضطراب ، فليس شىء أبعث للقلق فى النفوس من هذا النوع من المشاهدة . ولن تستطيع عين العقل أن تجد فى أى مكان ضوءاً أخطف للبصر ، أو ظلمة أشد مما تجد فى الانسان ! لن تستطيع هذه العين أن تثبت على شىء أدعى الى الخوف وأشد تعقيداً ، وأكثر غموضاً وأبعد مدى فى الوجود منظر أعظم من البحر . منظر السماء وفيه منظر أعظم من السماء ، هو دخيلة النفس !

وليست محاولة انشاء هذه القصيدة ، قصيدة الضمير الانسانى ولو بالقياس إلى رجل واحد ، ولو بالقياس الى أشد الناس ضعة . إلا محاولة صوغ القصائد القصيصة كلها فى قصيدة واحدة أعلى مكانة فى الشعر وأدنى الى الكمال . انما الضمير هو النار المتأججة تسبك فيها الأحلام وهو الكهف تختبىء فيه الخواطر الدنيئة المخجلة ، وهو العاصفة الجهنمية تأوى اليها كل شياطين المغالطة ، وهو ميدان الجهاد بين الشهوات .

تخطّ فى بعض الأحيان هذا الوجه الممتقع ، وجه الرجل المفكر ، وانظر وراءه . انظر فى هذه النفس ، انظر فى هذه الظلمة . ان تحت هذا الصمت الظاهر لحرباً ضروساً قد اشتبكت فيها المردة كما فى « هوميروس » ومعارك قد التحمت فيها التنانين والحيات ، وسحاباً من الأشباح كما فى « ميلتون » ودخانا يصعد ملتوياً كما فى « دنتى » شىء مظلم هذا الضمير الذى لاحد له ، والذى يحمله كل انسان فى نفسه ويقيس به يائساً إرادة عقله ، وما فى حياته من عمل !

لقد صادف «البجيرى» فى يوم من الأيام باباً مخيفاً تردد قبل أن يلجه ، فانظر أمامك فهذا باب مخيف أيضاً ، نتردد

أمامه . ومع ذلك فلندخل ! » .

بحثت عن هذا الكلام فى الترجمة فلم أجده ، وما أحسب أنه سقط فى المطبعة سهواً أو خطأ !

العيب الثانى : أن ترجمته — على ضخامة ألفاظها وفخامة أساليبها وعلى مالها من روعة وجمال — ليست دقيقة ولا حسنة الأداء ، وقد يكون لحافظ فى ذلك رأيه . ولكنى أرى أن ليس للترجمة قيمتها حقاً إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل . وليست ترجمة حافظ كذلك . ولست أريد أن أطيل ، وإنما أضرب مثلا واحداً . قال حافظ :

« قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر «جان فلجان» منذ ابتذ ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال هذا الرجل إلى رجل آخر . وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد (كذا ؟) أفاعيلها فأختطفته إلى المعبود وأخرجته من مسلاخ الشرّة (كذا ؟) والضغينة وأسكنته فى إهاب من الفضيلة » .

وقال فيكتور هوجو :

« ليس لدينا إلا شىء قليل نضيفه إلى ما عرف القارىء من أمر « جان فلجان » منذ كان بينه وبين « بنى جارفيه »

ما كان . فقد رأيت أنه أصبح رجلا آخر منذ ذلك الوقت فأنفذ ما أراد الأسقف أن يصنع به ، صنع بنفسه شيئاً أكثر من التحويل ، خلقها خلقاً جديداً »

ولو أننا ذهبنا فى المقابلة بين الأصل والترجمة لأظهرنا خلافاً شديداً جداً بين الشاعرين : الفرنسى والعربى . ولكنا قد أطلنا فلنختصر .

نأخذ حافظا بعيوب ثلاثة : الاسراف فى اللفظ الغريب، والاعراض التام عن بعض النصوص . والتشويه الذى يختلف قوة وضعفاً لبعضها الآخر . وهذه العيوب الثلاثة خطرة جداً ، ولكن حافظاً يستطيع أن يحتملها فليس يمكن أن نقرأ لا أقول ترجمته ، بل أقول كتابه دون أن نستفيد .

— ٩ —

الشـــعر
الشوقية الجديدة

لغيرى أن يمدح شوقى بلا حساب. أما أنا فلا أريد أن أمدح ولا أريد أن أذم. وانما أريد أن أنقد وأن أوثر القصد فى هذا النقد، وأظن أن شوقى يؤثر النقد المنصف على الحمد المسرف. وأظن أنى أجل شوقى وأكبره والنقد أكثر من اجلالى اياه بالتقريظ والثناء، فقد شبع شوقى ثناءاً وتقريظاً، وأحسبه لم يشبع نقداً بعد. وليس شوقى فيما أعلم منه شرهاً الى حسن الحديث وطيب القالة. وهو لم ينشىء شعره لذلك وانما هو شاعر يحب الشعر للشعر وينشىء الشعر لأنه يجد فى نفسه عواطف يحب أن يضعها، واحساساً يحب أن يذيعه. هو شاعر لأنه يشعر وليس هو بالشاعر لأنه يريد أن يتكلم لا أكثر ولا أقل.

أنا اذن واثق بأنى لن أغضب شوقى اذا نقدته، وربما أغضبته اذا غلوت فى الثناء عليه، على أنى لست فى حاجة الى هذه المقدمة الطويلة. فقد لا يسهل على ولا ييسر لى نقد

هذه القصيدة الجميلة التى نشرتها علينا «الاهرام» صباح اليوم .

نعم قد لا يسهل نقد هذه القصيدة ، وقد يضطر الناقد الى أن يتلمس فيها العيب ، ويبحث فيها عن مواضع الضعف ، وقد لايجد شيئاً بعد طول التلمس والبحث فيقف من شوقى لاموقف الناقد بل موقف المداعب . وهل تظن أن مداعبة شوقى ضئيلة الخطر أو قليـــلة القيمة ؟ لا أقول كما قالت «الأهرام» إن قصيدة شوقى هذه هى درة الشعر والنظم : وإنما أقول إنها قصيدة من قصائد شوقى فيها الكثير الجيد وليست تخلو من الرديء ولشوقى بحمد الله قصائد أمتن لفظا وأرصن أسلوبا وأحسن فى النفس موقعاً ، وأرفع معنى من هذه القصيدة .

لاأستطيع أن أتخذ هذه القصيدة مقياساً لشاعرية شوقى وحسن غوصه وفوزه بالمعنى الجيد وحسن أدائه فى اللفظ الرشيق . لا أستطيع ذلك وقد قرأت فى الشباب شعر شوقى فى الشباب فوجدت فى هذه القراءة لذة لم أجدها فى قراءة شاعر عصرى آخر . ليست هذه القصيدة آية من آيات شوقى ، وانما هى قصيدة من قصائده الجيدة ، ولعلك اذا أردت أن تتلمس مصدر مافى هذه القصيدة من جودة لم تتجاوز شيئاً

واحداً ، وهو أن شوقى لم يتكلف فى هذه القصيدة لفظاً ولا معنى ، وانما شعر وأحس وجرى قلمه بما أحس وماشعر . وليس هذا بالشىء القليل ولعل هذا هو كل شىء .

اقرأ هذه القصيدة من أولها الى آخرها تشعر بما يشعر به شوقى وتحس مايحسه شوقى . وبم شعر شوقى ؟ وماذا أحس شوقى حين تناول القلم فكتب هذه القصيدة ؟ شعر بشيئين يشعر بهما كل مصرى ، ولكن شعوراً غامضاً لايتبينه فى نفسه ، ولايستطيع أن يبينه للناس . أحدهما أن لتاريخ مصر القديم مجد وعظمة . والثانى أن تاريخ مصر الحديث فقير الى هذا المجد والى هذه العظمة . بهذا يشعر كل مصرى وبهذا شعر شوقى . ولكن كل مصرى لايستطيع أن يبين هذا كما بينه شوقى ، ولا أن يذهب فيه مذاهب القول التى ذهبها شوقى .

فانظر اليه كيف ابتدأ قصيدته بمناجاة الشمس ، فأخذ يسألها ويستوحيها ويحسن سؤالها واستيحاءها . وأخذت هذه الشمس تجيبه فتحسن الجواب وتلهمه فتجيد الالهام :

قفى يا أخت (يوشع) خبرينا
احاديث القرون الغابرينا

وقد وقفت أخت (يوشع) تخبره أحاديث القرون

الأولين فى أعذب لفظ وأسلسه . وأجمل أسلوب وأرقه دون أن تتعسف به أو تثقل عليه ، دون ان تضل به فى هذه القرون القديمة الكثيرة العميقة ، التى لايحصى لها عد ولا يسبر لها غور . وقفت أخت يوشع فحدثته أوقل إنها ألهمته فرد عليها حديثها . أو قل انها انابته عنها فتحدث الى الناس بلسانها ، فأحسن الحديث وأجاد الترجمة .

زعموا أن المأمون كان ينشد قول أبى نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

وكان يقول لو أن الدنيا تكلمت فوصفت نفسها لما بلغت ما بلغ هذا الشاعر ، أفتظن أن الشمس لو تكلمت فوصفت مابينها وبين الحياة من صلة ، وألقت على الناس موعظتها الحسنة فى غير اسراف ولاغلو ، فى غير تكلف ولا تعسف كانت تقول أحسن من هذا ؟

مشيت على الشباب شواظ نار
ودرت على المشيب رحى طحونا
تعينين المواليد والمنايا
وتبنين الحياة وتهدمينا

فيالك هرة أكلت بنيها
وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقاً ؟ أليس هذا بريئاً من كل سقم لفظى أو معنوى ؟ أليس هذا واضحاً يفهمه كل عقل ؟ أليس هذا عذباً يسيغه كل ذوق ؟ أليس هذا يسيراً يسيراً ؟ أليس هذا عسيراً ؟

ولكن الشاعر أراد أن ينتقل من هذه الحكمة البالغة ، والعبرة العامة الى موضوعه الذى عمد اليه ، ويخيل الى أنه لم يوفق الى حسن الانتقال

أأم المالكين بنى (أمون)
ليهنك أنهم نزعوا (أمونا)

لست أدرى لم أجد شيئاً من الصعوبة فى إساغة هذا البيت ؟ ويخيل إلى أنه لو أسيغ لكان عسير الهضم . ولعل مصدر هذا اسم (أمون) الأعجمى الذى وقع موقعاً فيه شىء من الحرج فى هذه الصفحة العربية النقية ولعل مصدر هذا بنوع خاص هذا الفعل الغريب الذى تكلفه الشاعر تكلفاً ، أو اضطر اليه اضطراراً وهو (نزعوا) يستعمله الشاعر بمعنى (أشبهوا) ويمر به القارىء فلا يفهمه ويضطر

الى أن يعطف على هذا الشرح الذى اضطر الشاعر نفسه الى أن يضعه . ولعله كان يستطيع أن يجد فى سعة اللغة وثروتها مخلصاً من هذا الحرج . وفرجاً من هذا الضيق فلا يقف ليشرح ولا يضطر القارىء الى أن يقف فيقرأ الشرح . وهبه انشد قصيدته إنشاداً ولم ينشرها فى « الاهرام » أتراه كان ينشد هذا البيت ثم يقطع الانشاد ويعمد الى هذا اللفظ الغريب فيفسره لسامعيه؟ ومالنا نحزن ونحن نستطيع أن نسهّل وما لنا نعسّر ونحن قادرون على التيسير .

ولعل الشاعر يعذرنى أيضاً إذا لم يعجبنى هذا البيت .

ولدت له (المآمين) الدواهى

ولم تلدى له قط (الأمينا)

فلفظ (المآمين) فيه نبو . ولفظ (الدواهى) يبعث الاشمئزاز فى النفس ، ولفظ (قط) يخلو من كل جمال شعرى . والبيت كله غامض برغم هذه الحاشية التى أضافها الشاعر . والبيت كله مخالف للحق فليس من الحق فى شىء أن ملوك مصر جميعاً كانوا كالمأمون ، وليس من الحق أنه لم يكن بينهم من أشبه الأمين . على أنى أبحث عن هذا الشبه فلا أجده وأكاد أخشى أن يكون الشاعر قد ظلم الأمين كما ظلمه

القصاص والرواة .

ثم مضى الشاعر فى لفظ سهل ، ومعنى ليس بالغريب ولا بالمبتذل ، الى ان قال فأجاد اللفظ والمعنى :

تعالى الله كان السحر فيهم
أليسو للحجارة منطقينـــا ؟

واستأنف مضيه ليس بالجيد ولا بالردىء الى أن انتهى الى الخلود ، فأحسن وصفه وأجاد التعبير عنه ولا سيما حيث يقول .

وأخذك فى فم الدنيـا ثناء
وتركك فى مسامعها طنينـا

وان كنت أجد لفظ (الطنين) قلقاً فى موضعه ضعيفاً كل الضعف غير ملائم لصدر البيت ، انظر الى هذا الصدر تجده فخما ضخما واسعاً رائعاً (وأخذك فى فم الدنيا ثناء) ثم انظر الى عجز هذا البيت تجده خاملا ضئيلا نحيفاً ، وهل تستطيع ان تضع (الطنين) بازاء هذا الثناء الذى ينطق به فم الدنيا ؟ وأين يقع الطنين هذا الصوت النحيل من هذا الثناء ثناء الدنيا الذى لاحد له ؟

فناجيهم بعرش كان صنواً
لعرشك فى شبيبته سنينا

فهو لايخلو من مسحة شعرية .

ولكنى اعتذر الى الشاعر اذا استثقلت هذا البيت الذى نظمت فيه أسماء الفراعنة نظم الخرز

وتاج من فرائده (ابن سيتى) و (مينا)

ومن خرزاته (خوفو) (ومينا)

وليس اجمل من اعتذاره عن قدماء المصريين ودفعه عنهم تهمة الظلم ومن استشهاده بظلم (البستيل) وذكره بنوع خاص ظلم القسس فى بناء البيع التى هى مأوى العدل والرحمة ، ففى ذلك على جماله الشعرى بر يملأ النفس حنانا . وان كنت أكره وصف عيسى بشافى العمى . وأظن ان قد كان للشاعر منصرف عن هذا اللفظ الثقيل المبتذل .

فأما قوله (اخا اللوردات) فليس من شوقى فى شىء . وليس من شوقى فى شىء وضعه هذا الاسم الأعجمى (كرنارفون) موضع القافية وجميل وصفه للورد وثنائه عليه وعظته إياه . ولكن أجمل من هذا كله اعتذاره الى اللورد من غضب الغاضبين واشفاق المشفقين . فى هذا

الاعتذار تلطف باللورد ، وحنان على مصر يحسن شوقى وحده تأديتهما :

رأيت تنكرا وسمعت عتباً فعذراً للغضاب المحنقينا
ابوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبة للناهبينا
سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا

هذه الأبيات تعدل آلاف المرات ما كتب الكتاب الى اللورد كارنارفون من لوم وعتب ومن شكر واعتذار .

ثم عطف الشاعر على الانجليز فرماهم بسهم أصاب منهم المقتل ، وأحسن الدفاع عن المصريين ، وذلك قوله فى لطف وخفة روح :

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفنينا

وان كانت كلمة (مكفنين) لاتعجبنى . وقد أحسن الشاعر مناجاة خلليه ومناجاة فرعون ووعظ فأبلغ العظة . ولكن انتقاله من وادى الملوك الى لوزان لايخلو من غرابة ، وربما كانت هذه الغرابة نفسها مصدر شىء من الجمال كثير . وان كنت أشك فى أن وفود لوزان شغلت بفرعون كما يخيل الى الشاعر . ولكن الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ وخليقة

أن تتعظ ؛ وخليقة أن تعمل .

اتعلم انهم صلفوا وتاهوا وصدوا الباب عنا موصدينا
ولو كنا نجر هنا سيفا وجدنا عندهم عطفا ولينا
سيقضى (كرزن) بالامر عنا وحاجات (الكنانة) ماقضينا

فهل ترى أبلغ من هذا البيت فى وصف الألم واللوعة لقضاء سينالنا دون أن يكون لنا فى أمره شيء ؟

ولقد أعجز العجز كله إن أردت أن أصف لك جمال هذه القطعة الصافية المتلألئة من قصيدة شوقى . هذه القطعة التى يتحدث فيها الشاعر الى فرعون فيسأله ويستنطقه بالحكمة العالية والموعظة الحسنة ويضع أمامه هذه الألغاز التى عجز العقل والوجدان عن حلها : ألغاز الحياة والموت . ألغاز البعث والنشور . ألغاز الصلات الاجتماعية بين الناس .

ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال ، يثب ويخيل اليك أنه يخطو . يثب من عصر الفراعنة الى العصر الذى نعيش فيه . فتراه شاعراً مصريا يعيش فى هذه السنة يحس مانحس ، ويشفق مما نشفق منه . يحب الدستور ويكلف به ، ويتمنى على صاحب الجلالة فى ألذ لفظ وأعذبه وفى أمتن أسلوب وأصفاه فى أشد العبارات تمثيلا لأصدق العواطف . يتمنى

على صاحب الجلالة اصدار الدستور :

زمان الفرد (يافرعون) ولى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعية نازلينا
(فؤاد) أجل بالدستور ملكا ... وأشرف منك بالاسلام دينا
بنى (الدار) التى لاعز إلا ... على جنباتها للمالكينا
ولا استقلال إلا فى ذراها ... لمتبوع ولا للتابعينا
ترى الأحزاب مالم يدخلوها ... على جد الحوادث لاعبينا
إذا سارت به أيد شمالا ... أتت أيد فسرن به يمينا
فعجل يا (ابن اسماعيل) عجل ... وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج ... من الكهف السواد الغافلينا

ذلك ما أحسه شوقى أمام تاريخ مصر القديم، وهذا ماقاله عن الدستور أما ما قاله حافظ فقد نعرض له فى مقال آخر.

— ١٠ —

النظم

قصيدة حافظ الأخيرة

كل شعر نظم ، وليس كل نظم شعراً . وقد يشعر الناظم وينظم الشاعر . بل الشاعر ناظم دائماً . وليس الناظم شاعراً فى كل وقت .

ولست أشك ولا يشك أحد فى أن حافظاً قد شعر كثيراً فأجاد الشعر وأحسنه . ولست أشك ولعل حافظاً لا يشك أيضاً فى أنه كان ناظماً فى الأسبوع الماضى حين أنشد بين يدى صاحب الجلالة هذه القصيدة التى لم أكن أريد أن أعرض لها لولا أن شوقى تكلم وتناول فى قصيدته التى نقدتها أمس موضوعاً تناوله حافظ ، وهو الدستور :

نعم لم أكن أريد أن أعرض لقصيدة حافظ لأنها لم تبعث فى نفسى ميلا إلى أن أصفها بخير . ولعلها بعثت فى نفسى ميلا إلى أن أنقدها وإلى أن أكون شديداً قاسياً فى هذا النقد .

وقد استطعت أن أؤثر اللين على الشدة وأعدل عن

القسوة إلى الرفق لأن بينى وبين حافظ صلات مودة دعتنى او اكرهتنى على ان اميل مع الهوى فأكتم حقاً كان يجب أن لا يكتم .

وأنا أعتذر من هذا الصمت إلى حافظ أولا ، والى القراء ثانياً ، والى الأدب بعد حافظ والقراء .

أعتذر الى حافظ من هذا الصمت فأنا أعلم أن النقد صنيعة يسديها الناقد الى الكتاب والشعراء . لأن هؤلاء الكتاب والشعراء يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون . يعرفون رأى الناس فيما يكتبون ويقولون ، وليست هذه المعرفة قليلة الفائدة . يعرفون رأى الناس ويعرفون رأى الاخصائيين . فيقفون على مواضع القوة والضعف فى فصولهم وقصائدهم فينفعهم هذا ويزيدهم قوة ، الى قوة ، ويعصمهم من السقوط والاسفاف . ثم فى النقد اقرار للحق فى نصابه ودفاع عن الفن وتبصرة لما فى الآثار الفنية من جمال أو عيب .

ولست أريد أن أدافع عن النقد ولا أن أثبت أنه حق وانه نافع ، فالناس لاينكرون ذلك ولا يشكون فيه .

ولست أريد أن ازعم أن حافظا ينكر على الناس أن ينقدوه ، فليس فى ذلك شك وكثيراً مادعا حافظ أصحابه

وخصومه الى نقده ودلالته على مواضع ضعف ومواطن نقص فى قصائده قبل أن تنشر ، وبعد أن تنشر على الجمهور.

إذاً فقد كان من الحق علىّ لحافظ أن أنقده ولكن سكت فقصرت فى ذات حافظ وأنا مصلح اليوم هذا التقصير .

وقد كان من الحق على للقراء أن انقد حافظاً ، حتى لا يخلط كثير منهم بين جيد هذا الشاعر وهو كثير . وبين رديئه وهو قليـــل . ولكنى سكت وأنا مصلح اليوم هذا السكوت .

وقد كان من الحق على للأدب أن انقد حافظاً حتى لايضاف الى الشعر ماليس منه ، ولا يحسب على الفن أثر ليس من آثاره فى شىء . وللأدب على أهله حق المراقبة والنصح وليس يعذر المقصر فى هذا الحق لأن الأدب يحيا من انتاج الشعراء والكتاب كما يحيا من اصلاح النقاد لآثار الكتاب والشعراء . فكما أن سكوت الكتاب والشعراء عن الكتابة والشعر إماتة للأدب أيضاً . وقد أعرضت عن نقد هذه القصيدة ، وأنا مصلح الآن هذا الاعراض .

ولو أنك أردت أن تتبين دخيلة نفسى لقلت لك بعد أن ترددت اسبوعا إن هـذه القصيدة لاينبغى أن تحسب على

حافظ ولا أن تضاف إليه . لأن حافظاً قد قال من الشعر ونظم من القصائد ماملك القلوب وخلب العقول واستأثر بالألباب ماليس إلى نسيانه من سبيل . ويخيل إلى أن اضافة هذه القصيدة إلى هذا الشاعر المتقن إساءة إلى إتقانه ، وأن وضع هذه القصيدة بين قصائده الجياد ازراء لهذه القصائد . وأحسب أن حافظاً يحسن الإحسان كله إذا لم يضع هذه القصيدة فيما سينشر من أجزاء ديوانه ، فليس لها موضع فى هذا الديوان .

بحثت عن الشعر فى هذه القصيدة فلم أجد شيئاً ، وأنا أزعم أن ليس من النقاد من يستطيع أن يجد ما عجزت أنا عن الوصول إليه ، بل أزعم أكثر من هذا ، بل أزعم أن حافظاً عاجز نفسه عن أن يجد شيئاً من الشعر فى هـــذه القصيدة ، وما أشك فى أنه فيما بينه وبين ضميره مقتنع بهذا الرأى مطمئن إليه .

لقد قرأت القصيدة وقرأتها . ورددت أبياتها ، رددتها وسألت فيها كل بيت ، بل كل شطر ، بل كل كلمة عن شىء من جمال الشعر أو قليل من روعة الفن فلم أوفق إلى شىء .

ولست آسف لأن حافظاً لم يجد فى هذه القصيدة ، فقد

يرتفع الشاعر وقد يهوى وقد يعلو الفنى وقد يسقط . ولئن لم يوفق حافظ فى هذه القصيدة إلى الإحسان فقد وفق إليه فى قصائد أخرى كثيرة ، وقد يوفق إليه فى قصائد أخرى كثيرة . وإنما آسف لأن حافظاً سكت عصراً طويلا أطول مما ينبغى أن يسكت الشاعر ، ولما قال لم يحسن القول . وما مصدر هذا ؟ وما أصله ؟ وعلى من تقع التبعة ؟ أحق أن العصر الذى نعيش فيه ليس عصر شعر ولا فن ؟ وإن انصراف الناس عن الشعر والفن إلى هذه الحياة ، وإلى هذه الحياة السريعة العملية التى تنهم القوى وتسئم النفوس قد ثبط من همم الشعراء والكتاب وصرفهم عن الشعر إلى النظم ، وعن النثر الرائع الجميل إلى هذه الكتابة المألوفة التى تقرؤها فى كل يوم . قد يكون هذا حقاً ، وقد لا يكون . ولكن هناك حقاً لا شك فيه وهو أن الشعر الجيد فى هذا العصر قليل لا يكاد يوجد ولا يعثر به . وهذه القلة نفسها هى التى بعثتنا إلى أن نعجب أمس بقصيدة شوقى ، مع أنها كما قلنا لا تفوق غيرها من قصائده .

الشعراء إذاً مكرهون على أن يسكتوا لأن فى حياتنا الاجتماعية شيئاً يضطرهم إلى السكوت ، وقد يكره الشعراء

على أن يتكلموا فيتكلمون . لكن أى قيمة لشعر مصدره الاكراه !

فالشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما فى نفس الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلا فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فاذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وانما هناك نظم لا غناء فيه . ولست أدرى أخلت نفس حافظ من العاطفة القوية أم عجزت هذه العاطفة عن أن تجرى لسان حافظ بالشعر الجيد ولكنى أعلم أن ليس فى هذه القصيدة من هذا الشعر شيء .

أول مايؤذيك حين تقرأ هذه القصيدة خلو أبياتها جميعاً من كل معنى رائع أو تصور بديع . فانك تنتقل من البيت الى البيت فلا تجد إلا ألفاظاً مرصوفة وكلماً منظومة يتلو بعضها بعضاً ، وتدل على معانيها اللغوية لا أكثر ولا أقل فاذا عمد الشاعر إلى التشبيه أو المبالغة أو أى حيلة من هذه الحيل اللفظية التى يخلص الشعراء بها من المازق لم يجد إلا الفاظاً مألوفة ومعانى كثيراً ماردداها الشعراء ، وطرقاً من التعبير قد سئمها الناس .

فانظر اليه حين أراد أن يقول إن صاحب الجلالة قد رفع شأن الأزهر الشريف ، حين زاره كيف لم يستطع أن يقول إلا شيئاً عادياً مبتذلا يردده الناس جميعاً ، ويسمعه الناس جميعاً ، فلا يجدون فيه غرابة ولا لذة ، فقال :

قضيت به الصلاة فكاد يزهى
بزائره على ركن الحطيم

فهل تجد فى هذا البيت معنى طريفا أو وصفاً رائعاً ؟ وهل تجد فى هذه المبالغة شيئاً من الجمال ؟ وانظر الى مبالغة أخرى كيف أساء الشاعر أداءها ، فقال يريد أن يصف قوة النهضة المصرية ، وأن يستنبط هذه القوة من شدة الخمول القديم :

أفقنا بعد نوم فوق نوم
على نوم كأصحاب الرقيم

فهل تجد جمالا أو شعراً فى كثرة هذا النوم ؟ اليس يذكرك هذا البيت بيتاً مثله قديماً وهو قوله :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى
كذاك النوى قطاعة لوصالى

سمع الأصمعى هذا البيت فقال ، لو سلط الله على كل هذا النوى شاة فأكلته !

فماذا عسى أن نقول فى نوم حافظ ! وهل تجد لأصحاب الرقيم هنا موضعاً يلائم قصيدة حافظ . أليس الناس جميعاً يذكرون الكهف وأصحاب الكهف ونوم أصحاب الكهف؟ وانظر إلى مبالغة ثالثة أساء فيها حافظ الاساءة كلها حين أراد أن يذكر اغتباط مصر إذ صدر الدستور :

فيا مصر اسجدى لله شكراً

وتيهى واقعدى طربا وقومى

(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها) أجاب حافظ : صدر الدستور ! وإلا فهل ترى مصر تتيه وتقعد وتقوم طربا دون أن يكون هناك زلزال ؟ . ثم قوله (اسجدى لله شكراً) وماذا ترك للعامة ؟ ومثل هذه المبالغات التى تخلو من كل روعة . ومثل هذه الألفاظ التى ابتذلت على ألسنة العامة كثير فى القصيدة ، وفى الحق أن ابتذال الألفاظ من أشد عيوب هذه المنظومة فانظر إلى قوله :

فقد تم البناء وعن قريب

تزف لك البشائر من (نسيم)

أليس من كلام الأسواق ؟ أليس غريباً أن يكون هذا

الكلام من آثار حافظ الذى استعمل أشد ألفاظ اللغة غرابة وأكثرها وحشية فى كتاب البؤساء . الذى استعمل (مسلاخ الشَّرَّة) وما يشبه (مسلاخ الشرة) من غريب الألفاظ وهل عجز حافظ عن أن يتخير متين الكلام ورصينه فى غير وحشية ولا ابتذال . وانظر إلى هذا البيت الذى ربما خيل إلى الشاعر أنه خفيف الروح :

أيأذن لى المليك البَرُّ أنى
أهنىء مصر بالأمر الكريم

أترى فيه لفظاً من ألفاظ الشعر أو معنى من معانى الشعر ومن أشد عيوب هذه القصيدة أن قوافيها غير مستقرة فى مواضعها . فقد تجد هذه القافية قلقة مضطربة وتشعر بأنها لم تأت إلا لأن الشاعر قد احتاج إليها ، لم يدعها المعنى وإنما دعاها التكلف . انظر إلى هذا البيت :

رأى فيك (المعز) زمان أعلى
قواعده على ظهر الأديم

ما تقول فى (ظهر الأديم) وقد أراد الشاعر أن يقول الأرض بل لم يرد أن يقول شيئاً إلا فى (المعز) رفع قواعد الأزهر . ولعل قواعد المساجد والعمارات لا ترفع على ظهر

الهواء وانظر الى هذا البيت :

فشرفها بركبك وافتتحها
وأسعدها بدستور تميم

فانظر الى (تميم) هذه ، أليست نابية فى موضعها ؟ أليست تذكرك قول العامة (دستور تمام) ثم ما (شرفها بركبك) هذه ؟ وما (افتتحها) ؟

وانظر الى قوله :

فدار البرلمان أعز دار
تشاد لطالب المجد الصميم

أليس (المجد الصميم) لفظاً دعت إليه القافية ؟ وهل تجد للصميم هنا فضلا على الطريف أو التليد أو الأثيل ؟ .

وانظر الى قوله :

بها يتجمل العرش المفدى
وتحيا مصر فى عيش رخيم

أترى إلى (العيش الرخيم) ألست تجد فيه أثر التكلف ؟ ثم أليس فى (الرخيم) شىء من الأنوثة قد لا يليق بهذا المقام ؟ ثم ما قيمة البيت فى نفسه إذا قرأت بعده قول شوقى :

بنى الدار التى لا عز إلا على جنباتها للمالكينا

وقد ذكرت شوقى ، وكنت أريد ألا أذكره الآن ! فان الموازنة بين ما قال فى الدستور ، وبين ما قال حافظ فى الدستور أيضاً مُرَّة ، مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقى فلا تشك فى أنه يصف ما يشعر به وما تشعر به أنت أيضاً . وتقرأ أبيات شوقى فتجد فيها المعانى الغالية القيمة ، قد أديت فى اللفظ العذب الرشيق . ليس فيها للبحث أثر ولا للتكلف مظهر . فاذا قرأت أبيات حافظ لم تجد شيئاً . وانما آذتك ألفاظ متكلفة وقوافٍ أنزلت فى غير منازلها ، وأكرهت على أن تستقر حيث لا تحب .

لأمر ما أبت شياطين الشعر أن تسعد حافظاً فأخلفنا فى هذه المرة ، ولكنا لا نيأس من لقاء حافظ ، ومن لقائه فى وقت قريب !

— ١١ —

شعراؤنا ومترجم أرستطاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد أوفر كتاب هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقهم بالغبطة والرضا ، فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ماظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والاعجاب الذى لاحدله ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أكره خصومه وأصدقاءه على أن يحمدوا له عمله فى غير بخل ولا تقتير ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه، وأطلق ألسنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفى السيد حين أذاع فى الناس ترجمته لأخلاق أرستطاليس ، فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم فى حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه ، وشكر ماقدم الى اللغة العربية من خير بترجمته هذا الكتاب ، وليس يعنينا ماكتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف

وقرأها الناس ، وانما الذى يعنينا هو هذا الشعر الذى أطلق به الأستاذ ألسنة الشعراء وأى الشعراء ! شوقى وحافظ ونسيم . فاذا كان من الحق علينا أن نقدم الى الأستاذ تهنئتنا الخالصة بهذا الثناء الطيب الذى هو أهل له ولخير منه ، واذا كان من حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخطئين فيما قدرناه يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرستطاليس من أن ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث .

نقول اذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حقنا أيضاً أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء بها كتاب الأخلاق لأرستطاليس لنتبين وجهاً من وجوه القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر وأنا أعلم حق العلم ان من الاسراف ان نحكم على القوة الأدبية فى هذا العصر بكتاب مهذب الأغانى وتهذيب الكامل وبلاغة العرب فى الأندلس . واعلم كذلك حق العلم ان من الاسراف والظلم أن نحكم على قوة الشعر فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث التى أنشأها شوقى وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد وترجمته لأخلاق أرستطاليس ، أعلم أن هذا اسراف وظلم

فان لشوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفة من الجد والهزل فيها لذة للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب أن يلاحظ القارىء أنى لا أتخذ هذه القصائد عناوين لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الاجادة والاساءة ، ومن السمو والاسفاف ، وإنما هى فرصة نتحدث اليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحائهم فى الشعر ومذاهبهم حين يعمدون اليه ، وليس من شك فى أنى لا أبخل بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ، فهم حين انشأوا قصائدهم هذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة هى عاطفة الانصاف وإكبار من يستحقون الاكبار ، والوفاء لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا فى نفسه بالشىء القليل ولا سيما بالقياس الى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد على جلال خطره وعلو مكانته فى أمته ليس هو بحيث يستطيع أن يبتز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر وما كان ذلك من شأنه ولا من أخلاقه ، فشعراؤنا اذن صادقون غير متكلفين ، مخلصون غير متصنعين فيما قدموا الى الأستاذ من مدح وفيما أهدوا اليه ، ومن ثناء بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشىء

من الثناء غير قليل لما وفقوا اليه من الوجهة الفنية الخالصة فكلهم قد وفق الى شيء من الاجادة لا بأس به ، وكلهم قد جد فى تخير الألفاظ واتقان النظم وإحكامه واقرار القافية فى نصابها فوفق من هذا كله الى الشيء الكثير ، وكلهم قد اجتهد فى الغوص على المعانى - كما يقولون - وتلمس الغريب الطريف منها فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلبة وانما عاد بشيء يمكن أن يحصى بين الحسنات الشعرية ، على أنى أستأذن شعراءنا وأستأذن من قبلهم أستاذنا لطفى السيد فى أن أكون حراً حين أنقد هذه القصائد ، فقد تعودت هذه الحرية وحرصت عليها وأكبرتها عن أن أضحى بها فى سبيل انسان مهما تكن منزلته من الناس ومنى ، ولو كان هذا الانسان هو الأستاذ لطفى السيد أو شوقى أو حافظاً أو نسيما .

أريد أن أكون حراً ، واذن فأنا معتذر الى شعرائنا الثلاثة اذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا لذكر أرستطاليس ومدحه والاشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ذكروا أرستطاليس ومدحوه وهم يجهلونه ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقونى - وهم يصدقوننى - اذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب

الأخلاق الذى أنشأوا من أجله هذه القصائد ، وما أظن أن علمهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً ، وهنا أتردد بين العتب والثناء فقد يكون مما يستحق الثناء والاعجاب أن يعمد الشاعر الى موضوع لا يدركه ولا يحيط بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا يبرأ من احسان ، ولكنى ثقيل ملحاح ، شديد الطمع مسرف فى الحرص على المثل الأعلى ، فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ، ولا أحب لهم ان يعرضوا للأشياء الا اذا اتقنوها اتقانا ، وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً . وقد أفهم أن يقول الشعراء مالا يفعلون ، ولكن لا أفهم أن يقول الشعراء مالا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف ، فما كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للاجادة ولا طريقاً الى البراعة الفنية ، وما رأيك فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات الفنية وهو يجهل التشريح ، وما يتصل به من تكون الجسم الانسانى وما إلى ذلك من هذه العلوم ، التى لا سبيل الى الاجادة الفنية بدونها . إن الاجادة الفنية اذا كانت أثراً من آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى . والعواطف

الدقيقة والخيال الخصب . فهى لغو اذا لم تستمد غذاءها الحقيق من العقل والعلم .

وربما كان شوقى أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب فى هذا الموضوع . نعم هو أحقهم بالعتب فهو من بينهم قد تعلق بأرستطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ، وخص له فى قصيدته أكثر مما خص للأستاذ المترجم ، ولعلك تدهش ، ولعل شوقى نفسه يدهش اذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرستطاليس وانما مدح أفلاطون . . . نعم ، أراد عمراً وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عمرا بالخير فانصرف هذا الخير عن عمرو الى خارجة ، لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل الى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبيعتها لكان من حق أرستطاليس أن يخاصم شوقى ، وأن ينفس على أفلاطون أستاذه هذا المدح الذى جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقى أرستطاليس وأراد الله أفلاطون . ولست فى حاجة الى أن أطيل القول فى أن شوقى لم يمدح أرستطاليس ، فيكفى أن تقرأ قصيدة شوقى لترى أنه يصف أرستطاليس بأنه سبق الى التوحيد فأعلنه قبل البنية والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً وبأنه كان

قدسى الروح ، وبأن لطفى صدى صوته الرخيم ، وبان رسائله كالسلافة إذا جرت فى جسم النديم . واذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق الى اعلان التوحيد فليس هو أرستطاليس وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً فقد سبق فلاسفة الى اعلان التوحيد فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولكن الشىء الذى يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفا يونانياً يقرن المسيح ، وتعتبر فلسفته أصلا من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها ، وليس هذا الفيلسوف أرستطاليس وانما هو أفلاطون ، أفلاطون صاحب المثُل ، أفلاطون الذى أمعن فى طلب المثل الأعلى والذى استطاع أن يرقى بالنفس الانسانية والفكرة الالهية الى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعد . أما أرستطاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد به فى السماء ، ولهذا لم يصعد أرستطاليس فى السماء ، ولعله لم يرفع بصره الى السماء وإنما خفضه الى الأرض ، ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . واذا كان هناك فيلسوف تلائم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل اذا كان هنـــاك فيلسوف هو الشاعر حقاً فهذا

الفيلسوف هو أفلاطون لا أرستاليس . ولو عرف شوقى إله آرستاليس هـذا الاله العاجز الجاهل المفتون بنفسه المنصرف الى جماله عن كل شيء ، الذى لايعلم الا نفسه ولا يفكر الا فى نفسه ولا يعجب الا بنفسه . أقول لو عرف شوقى إله أرستاليس هذا لرثى لأرستاليس نفسه ولما استطاع أن يقول :

من كان فى هدى المسيح
وكان فى رشد الكليم
وغدا وراح موحـــداً
قبل البنيـــة والحطيم

كلا ، لم يكن أرستاليس فى هدى المسيح ولا فى رشد الكليم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرستاليس ، ولعله لم يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء ، ولكن الشيء المؤلم حقاً هو أن يقول شوقى عن أرستاليس :

ورسائل مثل السلا ف اذا تمشّت فى النديم
قدسية النفحات تســكر بالمذاق وبالشميم
يالطفِ أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

أى الرسائل يريد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار أرستطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرستطاليس شيئاً قليلا أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن صوت أرستطاليس كان رخيما ؟

أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية - وإنما أريد شعراءنا خاصة - وأعذر شوقى وغيره إذا خيل اليهم أن توحيد المسيح أو توحيد المسلمين هو توحيد على كل حال، وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا فى أن يدرسوا ما بعد الطبيعة ، ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد فيخيل اليهم أن أرستطاليس كان حلو النثر رخيم الصوت قدسىّ النفحات تشبه آثاره بالسلافة ، صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون فلن تبلغ من وصفه ما تريد ، ولكن لا تصف بها أرستطاليس فكم كد نثر أرستطاليس عقولا وصدع رءوساً ؟ والأستاذ لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن نثر أرستطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء

وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه نثر عالم قد أتقن لغته ، وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ويلائم بينها وبين حاجات العلم والفلسفة . أنت لا تحمد أرستطاليس ولا تحسن اليه بهذه الصفات ، فقد لا يكون من الخير للعالم أن تكون لغته ساحرة فتانة لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها . وإنما هو محتاج الى الدقة والى التشدد فى الدقة ، والى أن يسمى الأشياء بأسمائها . ولكنى قد قلت لك إن شوقى أراد أرستطاليس وأراد الله أفلاطون .

على أنى أنتقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضا ، وهو أنهم لم يقرأوا كتاب الأخلاق ولم يقدروه قدره ولم يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته . فهم قد فتنوا بلفظ الأخلاق ، وخيل اليهم أن أرستطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطفى قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ترجمه ولعل الرجلين قد فكرا فى شىء من هذا ، ولكنى أستطيع أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمى لا عملى ، وأن المؤلف والمترجم أراد خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والإرشاد . وما أظن

أن كتاب أرسطاليس فى الأخلاق يصلح مرجعاً للوعاظ والمرشدين ، وانما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه فى الجامعة وفى مدرسة الحقوق . وهل أستطيع أن ألفت شوقى الى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسطاليس حين قال :

يبنى الشرائع للعصور بناء جبار رحيم

فقد يكون أرسطاليس درس السياسة ووضع فى هذا الدرس أصولا قيمة ولكنه لم يبن الشرائع ، واذا كان هناك فيلسوف يونانى شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين.

كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقى لم يدرس أرسطاليس قبل أن يمدحه فلندع هذا العيب الأساسى الى ملاحظات أخرى فنية :

انظر الى هذه الأبيات :

وسريت من شعب الألمب به الى وادى الصريم
فتجارت اللغتان للغايات فى الحسب الصميم
لغة من الاغريق قيمة وأخرى من تميم

ألاحظ قبل كل شىء أنى لو كنت مكان شوقى لما ذكرت الألمب بعد أن زعمت أن أرسطاليس كان على نهج المسيح

وفى رشد الكليم ، فالألمب مستقر الوثنية اليونانية وعلى قمته كان يقوم قصر كبير الآلهة زوس ، وألاحظ بعد هذا أن القافية قد عبثت بهذه الأبيات عبثاً غير قليل ، فما وادى الصريم هذا ؟ وما صلة لطفى السيد بوادى الصريم ، وهو انما نقل أرستطاليس الى وادى النيل ؟ وما شأن تميم ؟ وهل من الحق أن اللغة التى ترجم الكتاب اليها هى لغة تميم ؟ وهل نعرف لغة تميم حقاً ؟ ولم لا تكون لغة قريش فهى لغة القرآن وهى اللهجة العربية الوحيدة التى نعرفها حقا ؟ ولكن تميما والصريم ينتهيان بالميم ، وكم كنت أحب ألا يخضع شوقى للقافية هذا الخضوع .

وبعد فان من الجحود والظلم ألا أثنى على هذا البيت القيم الملائم للحق ملاءمة تامة وهو قوله :

لمسوا الحقيقة فى الفنو ن وأدركوها فى العلوم

هذا البيت آية فى الصدق فقد لمس اليونان الحقيقة فى الفن وأدركوها دون أن يلمسوها فى العلم ، أكرر ان هذا البيت آية فى الصدق ومثل جيد للايجاز البديع . وقد أسرف فى الظلم ايضا اذا لم اثن على هذا الجمال اللفظى فى قوله :

العاشقين العلم لا يألونه طلب الغريم

المعرضين عن الصغا ئر والسعاية والنميم

وإن كان لفظ الصغائر لا يعجبنى . وقد يكون من الانصاف أيضاً أن أثنى على هذه الأبيات التى تمثل أنصاف شوق ووفاءه وكرم خلقه :

قسما بمذهبك الجميـ ـل ووجه صحبتك القسيم
وقديم عهد لا ضئيـ ـل فى الوداد ولا ذميم
ما كنت يوماً للكنا نة بالعدو ولا الخصيم
لما تلاحى الناس لم تنزل إلى المرعى الوخيم
كم شاتم قابلته بترفع الأسد الشتيم
وشغلت نفسك بالخصيـ ـب من الجهود عن العقيم
فخدمت بالعلم البلا د ولم تزل أو فى خديم

ولندع قصيدة شوقى إلى قصيدة حافظ ولن يكون موقفنا مع حافظ أشد حرجا ومشقة من موقفنا مع شوقى ، ذلك لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر ، قلنا إن شعراءنا الثلاثة لم يقرأوا كتاب أرستطاليس وما نظن أنهم تجاوزوا مقدمة المترجم العربى ولكن حافظاً يزعم لنا أنه قرأ الكتاب فيقول :

إنى قرأت كتابه بين الخشوع والاعتبار

فاذا المؤلف ماثل جنب المترجم فى إطار
وعليهما نور يفيض من المهابة والوقار

كلا ياحافظ، لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد، ولم تر المؤلف والمترجم ماثلين فى إطار وإنما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذى تذكره، وأنا زعيم بأنك لن تجادل ولن تمارى فيما أقول. فلو أنك قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين فى هـذا الاطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا. وهل تريد أن تقنعنى بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرستطاليس ويتفهمه دون أن يوحى اليه الشعر آية من آيات البيان فى وصف هذا العقل الذى لم تعرف الانسانية مثله بعـد؟ كلا، أنت كشوقى لا تعرف أرستطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفى ولكنك أحق بالرضا وأقل تعرضاً للعتب من شوقى، ذلك لأنك ذهبت مذهب أرستطاليس فلم تلتمس ما ليس فى يدك ولم تتجاوز الأفق الذى أنت فيـه، مدحت لطفى خاصة وتأدبت مع أرستطاليس لا أكثر ولا أقل، ومن هنا أحسنت فى مدح لطفى احساناً لا بأس به وان لم يقصر عن مثله شوقى

ولكن حدثنى عن هذا البيت :

بكتاب رسطاليس تا ج نوادر الفلك المدار

ألم يثقل عليك ؟ أتحب هـــذه الاضافات ؟ وما معنى « نوادر الفلك المدار » ؟ وما معنى تاج هذه النوادر ؟ وما معنى أن يكون كتاب أرسطاليس تاجاً لهـــذه النوادر ؟ أتعرف أنى لا أفهم شيئاً إلا أنك سلكت هذه الطريقة الطويلة لتصل إلى لفظ المدار لتظفر بقافيـــة وتحشر فى القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه ، وكذلك استعبدتك القافية فى قولك :

زن الـكلام كأنه ماس بميزان التجـار

فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة اليه الا لأنه قافيه ؟

ولكنى أثنى فى غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً الصادقة حقاً :

قالوا لقد هجر السيا سة وانزوى فى عقر دار
ترك المجـــال لغيره ورأى النجا مع الفرار
لا تظلموا رب النهى وحذار من خطل حذار
هجر السياسة للسيا سة لا لنوم أو قرار
لو أنهم علموا الذى يبنى لهم خلف الستار

وإن كنت أجد شيئاً من الابتذال فى قوله (ترك المجال لغيره) وأشعر بأن لفظ (مع) شديد القلق فى هذا الشطر : «ورأى النجاة مع الفرار» وهلا قال: ورأى الركون إلى الفرار. وهل يأذن لى حافظ فى ألا أحب « لقم الطريق » فى قوله

واجعل على لقم الطريق صُوى تلوح لكل سار

وقد يكون اللفظ صحيحاً ولكن ليس كل صحيح جيداً ملائماً للغة الشعر . وأكبر ظنى أننا مدينون بهذا البيت كله للفظ السارى فهو قافية والسرى يستتبع الصوى والأعلام ، والصوى والأعلام تستتبع الطريق ولكنها لا تستتبع « لقم الطريق » وهل يغضب حافظ إذا لم أرتح إلى قوله :

عجل بها قبل « الفسا د » وقبل عادية البوار

وأنا أعلم أنه يطلب إلى الأستاذ لطفى السيد أن ينشر كتاب « السياسة » قبل كتاب الكون والفساد ، ولكن ألا يشاركنى حافظ فى أن ضرورات الشعر قد تكون منكرة أحياناً ، وفى أن التعبير بالفساد عن كتاب الكون والفساد ضرب من هذه الضرورات المنكرة ، ولكن أشد من هذه الضرورة نكراً (عادية البوار) التى جاءت لا أدرى لماذا ؟ أستغفر الله جاءت للقافية فآخر هاراء ، وويل لشعرائنا من القافية!

وسواء أرضى حافظ أم غضب فسأقول ما فى نفسى ورزقى على الله - كما يقولون - ظن حافظ أن كتاب السياسة لأرستطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الانجليزية وحل المسألة المصرية ، ولهذا آثره على كتاب الكون والفساد وطلب إلى الأستاذ لطفى أن يقدمه وأن يستعجل فى نشره . ولم لا ؟ ألسنا متعجلين فى حل المسألة المصرية ، تتحرق أكبادنا ظمأ إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكن كتاب السياسة لا يقدم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية ، ولا فى فهم السياسة الانجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمى الذى سيعالج شامبرلين أو كرزن أو ماكدونالد ، كما أن الشيخ الجربى لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين ، ولندع قصيدة حافظ إلى قصيدة نسيم .

* * *

ولكنى متهم حين أعرض لنسيم فقد تفضل بالثناء علىّ وأشار إلى أن لى نثراً يعجبه . على أنى سأكون حراً وسأغضب نسيما كما أغضبت صاحبيه فهو مثلهما ينتظر من كتاب الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرستطاليس ولا لطفى ، وكما أن شوقى قد أخطأ حين قارن بين أرستطاليس والمسيح فقد

أخطأ نسيم حين ذكر هوميروس على أنه من شعراء المدح ، وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهوميروس ، فما كان هوميروس مادحاً ولا هو من أصحاب المديح وانما هوميروس وأصحابه أهل قصص واشادة بذكر الأبطال الذين انقضت عصورهم، فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو بندار وتلاميذه وشعراء الاسكندرية خاصة كاليماك وتيوكريت وغيرهما

وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف من شأن القافية ، ولكنى أعترف - لالأن نسيم ذكرنى !... بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتى صاحبيه بل أعترف بشىء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن فى قصيدة نسيم شيئا من الخفة لم يوفق اليه شوقى ولا حافظ وانظر إلى مطلع قصيدته :

شعر يزف بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
ما عيب مرقصة خلت من ذكر غانية لعوب

وفى هذا الكلام - على أنه عادى - شىء من الظرف والعذوبة ، وفى قصيدة نسيم شىء آخر ، وهو أن شخصيته ظاهرة مؤلمة مؤثرة ، فهو لم ينس ابنه الذى فقده ، ولم يكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبثه إلى ممدوحه وهو

فيلسوف ، وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثره بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفى قصيدة نسيم هذه الأبيات التى تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة جريئة ، أليس يتمنى على جلالة الملك أن يكل تربية ولىّ العهد إلى لطفى مترجم أرسطاليس كما وكل فيليب تربية الاسكندر الى ارسطاليس :

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يدلى اليك بناشىء فى حجر سدته ربيب
تسقيه من نهى العلو م ووردها غير المشوب
وتريه فى ريعانه وضح المسالك والدروب
فهنالك الفاروق يصبح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك فى الصبا ويشيد باسمك فى المشيب

أنا أقدم فى هذه المرة نسيما على صاحبيه .

— ١٢ —

شعـــــر ونثر

صديقي العزيز هيكل

أدركني مقالك الممتع حول الشعر والنثر في هذا البلد الذي أويت اليه من بلاد لبنان ، معتزلا كل حركة علمية أو أدبية إلى حين . ولعلك تذكر أني كنت وعدتك بطائفة من الفصول أرسلها اليك من لبنان أدرس فيها درساً رفيقاً شعر شوقي والبارودي . ثم آثرت الكسل على العمل والراحة على الجهد ، فاعتذرت اليك من هـــذا الوعد وسافرت ولم اصطحب شعر شوقي ولا شعر البارودي . ومع ذلك فلي في الشاعرين رأي أنا على اظهاره حريص ، لا لأني أراه فحسب ، بل لأني أرى فيه عدلا وانصافا ، وأرى أن هذا الجيل الذي نحن فيه قد فتنه الجهل والشهوة فظلم وجار ، وأصبح من الحق على النقاد أن يرفعوا هذا الظلم والجور . ورغم هذا كله فقد آثرت نفسي بالراحة وأرجأت اعلان هذا الرأي الى حين ، وأويت الى هذه الناحية الجميلة من نواحي لبنان

أتذوق فيها عذوبة الماء ورقة الهواء واعتدال الجو وحسن أخلاق الناس . وكنت أظن أن لن يصرفنى عن هذه اللذة صارف حتى أعتزم العودة الى مصر لأستأنف فيها حياتنا الشاقة مع أول السنة ، ولكنى تورطت فطلبت اليك قبل السفر أن ترسل الىّ السياسة ، وتورطت فجعلت أنظر فى السياسة كلما وصلت الىّ ، وتورطت فقرأت إعلانا أذاعت فيه السياسة أنها ستنشر لك فصلا فى الشعر والنثر ، فتمنيت ألا تصل الىّ السياسة يوم تنشر لك هـــذا الفصل لأنى لا أستطيع أن أرى لك شيئاً فى الأدب دون أن أقرأه ، وأن أقرأه فى عناية وتدبر ، لأنى كنت كما قلت معتزماً ألا أقرأ شيئاً ذا بال . فلما وصل إلىّ هذا الفصل لم أجد بداً من قراءته وأنا أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعة اللذيذة التى أنفقتها فى قراءة هذا الفصل الممتع . فهو فصل ممتع حقاً فى لفظه وفى معناه وفى أسلوبه وفى طريقة عرضه على القراء . ويظهر لى أنك قد أصبحت من أشد الناس شرها إلى الثنـــاء والاعجاب ولكنه شره محمود ، فأنت لا تكتب إلا اضطررت قراءك إلى الثناء والاعجاب ، وأنت لاتسمع ثناء ولا تحس اعجاباً الا ازددت اجادة وأمعنت فى الاتقان .

ولست أدرى الى أين يذهب بك هذا الامعان فى اجادة البحث واتقان التفكير ، والتوفيق الى الجمال الفنى فيما تكتب ، وقد قيل ان لكل شىء حداً ، وأنا أومن بأن للثناء حداً وللاعجاب حداً نحن منتهون اليه ، ولكنى أومن بان ليس للجمال الفنى حد ، وإنما هو مثل أعلى يمضى أمامنا ونسعى نحن فى أثره فنبلغ منه شيئاً ثم نحس أن ما بلغناه ليس كل شىء ، فنسعى ونسعى وهو يمضى ويمضى ، وإذا فسيزداد حظك من الاتقان والاجادة ، وسننتهى نحن من الثناء عليك والاعجاب بك الى حد لا نستطيع أن نتجاوزه ، وسيكون بيننا وبين حقك علينا أمد ليس الى قطعه من سبيل .

أنت موفق حين تلاحظ أن النثر العربى فى هذا العصر قد نهض نهضة قيمة وأصبح أداة صالحة للتعبير عن حاجة العقل والشعور بعد أن تطور العقل والشعور فى هذا العصر تطوراً لم تعرفه العصور القديمة العربية . وفى الحق أنا نستطيع الآن أن نصف ألواناً من الآراء والخواطر فى فنون من القول مرنة سهلة راقية لم يكن لآبائنا بها عهد . وأنت موفق أيضاً حين تلاحظ أن النثر العربى الحديث على رقيه وامعانه فى هـــذا الرقى لم يزل فى حاجة الى كثير من المرونة واللين

والثروة اللفظية ، وأنه قد لايحتاج إلى زمن طويل وجهد عظيم قبل أن يبلغ حاجته من هذا كله . وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التى تخطر لنا والعواطف التى تجيش فى صدورنا . بل نعجز عن أن ننقل خواطر وآراء يراها الأوربيون سهلة يسيرة بل مبتذلة وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة التى لم نتفق بعد على طريق للتخلص منهـــا . وآية ذلك أيضاً أنا نضطر فى أحاديثنا وفى كتاباتنا الى أن نستعير جملا فرنسية أو انجليزية أو ألمانية أو الى أن نستعير جملا من لغتنا العربية العامية .

أنت موفق فى هذا كله ، وموفق أيضاً حين ترى أن طائفة من الكتاب المحـــدثين قد استطاعوا أن يتمايزوا بأساليبهم وشخصياتهم وآرائهم ، وأن يستقلوا عن القدماء دون أن يتصل كل واحد منهم بواحد من أولئك القدماء .

كل هذا حق ، وحق أيضاً أن الشعر بعيد كل البعد عن أن يصل الى حيث وصل النثر من الرقى والقوة والمرونة ، وأن الشعراء بعيدون كل البعد عن أن يصلوا الى ما وصل اليه الكتاب من التمايز بألفـــاظهم وأساليبهم وآرائهم

وشخصياتهم ، وأن يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء . كل هذا لا سبيل الى الشك فيه ، وهو شيء نحسه جميعاً وقد سبقت أنت فأعلنته وعرضته علينا وعلى الناس . ولكن لى بعد هذا ملاحظتين أحب أن أعرضهما عليك ، وأحب أن تفكر فيهما بعض التفكير ، وأرى إن فعلت فقد نربح من هذا فصلا ممتعاً كالفصل الذى فرغت من قراءته منذ حين .

فأما الملاحظة الأولى فهى أنك قد وفقت الى كل هذه الحقائق الواقعة واجتهدت فى عرضها وتوضيحها ، ولكنك لم تبحث عن الأسباب التى دعت الى وجود هـــذه الحقائق الواقعة ، فلماذا رقى النثر وسهل وساغ حتى أصبح أداة صالحة للتعبير ؟ ولماذا جمد الشعر أو قل ظل جامداً لا لين فيه ولا مرونة ولا جدة ولا حياة ؟ ولماذا استطاع الكتاب أن يتمايزوا بشخصياتهم القوية وأن يفرضوها على الناس فرضاً ، وعجز الشعراء عجزاً فاحشاً عن أن تكون لهم هذه الشخصيات حتى أصبح من أيسر الأمور على الناقد اذا قرأ قصيدة لشوقى أو لحافظ أو غيرهما أن يرد هذه القصيدة الى أصلها القديم الذى أخذت منه ، أو أن يرد كل جزء من أجزاء هذه القصيدة الى أصله الذى أخذ منه ؟

حسن أن تذهب أيهـــا الصديق مذهب أصحاب العلم الطبيعى فتلاحظ الظواهر الأدبية وتسجلها . ولكنى قلت لك غير مرة إن أساليب العلماء وحدها قد تعجز عن الكفاية فى الأدب وفى النقد بنوع خاص ، وما الذى أفدته انا حين عرفت أن النثر قد ارتقى وأن الشعر مازال جامداً ؟ ألست ترى أن من الخير أن أعرف لم ارتقى النثر وجمد الشعر لأتزيد من أسباب الرقى ولأجتهد فى أن أتقى أسباب جمود الشعر وأخلص الشعراء منها ؟

والحق أنى فكرت كثيراً فى هذه الأسباب وفكرت فيها منذ اعوام حين كنا نعمل معاً فى تحرير السياسة وحين كنا نلاحظ فى شىء من الرضا والأمل أن فننا النثرى يزداد فى كل يوم مرونة ويصبح فى كل يوم أداة صالحة فى أيدينا ، نتسلط بها على الخواطر والآراء والمعانى المتباينة فى جميع أنحاء الحياة ، وحين كنا نضحك ونتهالك على الضحك من شعر الشعراء وجموده وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة ، وحين كان كل واحد منا يلقى على صاحبه هـــذه الكلمة الكاذبة التى نقدم بها الى القراء شعر أصدقائنا الذين نسبغ عليهم مبتسمين فى سخرية ورحمة وإشفاق ، أشد الألقاب

ضخامة وفراغا !

أنت تذكر هذه الأوقات ، وكيف تنساها ومازلت فيها ؟ أليست تصل اليك من حين الى حين قصائد شوقى وحافظ وغير شوقى وحافظ فتفتن أو تكلف من أصحابك من يفتن فى ترصيع الألفاظ وتأليف الأسجاع مقدمة بين يدى هذه القصائد ، وإن على شفتيك لابتسامة لو رآها الشعراء وفهموها لأعرضوا عن الشعر أو لسلكوا بالشعر طريقاً غير هذه الطريق العقيمة التى لا يعرفون لها أخراً ؟

فكرت فى هذه الأسباب فلم أنته الا الى سبب واحد ، يخيل الى أنه المؤثر الحقيقى فى رقى النثر الحديث وجمود الشعر فى هذا العصر ، وأنا أعلم أن الشعراء سيدهشون ويضحكون وسيغضبون ثم يثورون حين أعرض عليهم هذا السبب . ولكنى قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك والغضب والثورة وما هو فوق هذا . فسأعرض عليهم هذا السبب مبتسما بل ضاحكا ان لم يقنعهم الابتسام .

شعراؤنا جامدون فى شعرهم لأنهم مرضى بشىء من الكسل العقلى بعيد الأثر فى حياتهم الأدبية ، فهم يزدرون العلم والعلماء ولا يكبرون الا أنفسهم ولا يحفلون الا بها ، وهم

لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير . وكيف يقرءون أو يتحدثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد فى السماء بجناحيه فى غير تفكير ولا بحث ؟ فأما البحث والتفكير فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر . والعقل ميزة الفلاسفة وميزة العلماء والشعراء أجل وأعلى أن يكونوا فلاسفه أو علماء إنما هم شعراء ! وإذا قلت شعراء فقد قلت كل شىء ، أو قل انك قلت شيئاً لا يفهم . وأنت تجلس الى شعرائنا وتتحدث اليهم وتسمع لهم ، فهل رأيت منهم الا ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟

هذا فيما أرى هو السبب الحقيق لجمود الشعر العربى فى هذا العصر ، فليس من الحق فى شىء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق فى شىء أن الملكات الانسانية تستطيع أن تمايز وتتنافر فيمضى العقل فى ناحية لينتج العلم والفلسفة ، ويمضى الخيال فى ناحية لينتج الشعر ، وإنما حياة الملكات الانسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة إلى الفشل والاخفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضاً . وأنا زعيم لك بأن العالِم فى معمله يستخدم الخيال أكثر مما يستخدمه الشاعر ،

ولولا هذا لما تصور ألوان التجارب والفروض الغريبة التى تنتهى به دائماً الى استكشاف الحقائق العلمية الصحيحة . فالعالم يستخدم الخيال ويستغله ويستعير جناحيه يطير بهما ويصعد ويمعن فى التصعيد ويعود ومعه نتائجه القيمة . أما الشاعر (العربى) فيزدرى العقل ويستعين به ولا يستعير مصباحه ولا يهتدى بنوره . واذاً فهو لا يستطيع أن يتقدم لأنه فى ظلمة حالكة ، وهو لا يستطيع أن يرى أمامه فيضطر الى أن ينظر الى الوراء ويستعير شعر القدماء وخيال القدماء . ومن الغريب أنه يستعير شعر القدماء فى غير فهم له ولا بصر به ، فان القدماء لم يعتمدوا على الخيال وحده وإنما اعتمدوا على الخيال واستغلوا العقل استغلالا عنيفاً . وأنا أستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب فى جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم ، بل كانوا فى الجاهلية يحتكرون العلم احتكاراً دون غيرهم من الناس . فأما فى الاسلام فقد كان الشعراء الأمويون يعلمون حظ عصرهم من العلم . وأستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن جريراً والأخطل كانا يعلمان علم الشعبى وابن عباس وغيرهما من علماء عصرهما ، وكان أبو نواس محدثاً أخذ عنه الشافعى

وكان يشارك المتكلمين فى مقالاتهم ، ويأخذ بحظ موفور من فلسفه الفلاسفة ، ويسخر من النظّام ومقالاته فى الكبيرة والتوبة وما اليهما . فأما المتنبى وأبو العلاء فالنظر فى شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفة ، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفة الذين عاصروهما .

الفرق بين الشعراء والكتاب فى هذا العصر : أن الشعراء لا يقرأون ولا يتعلمون ولا يغنيهم أن يقرأوا أو يتعلموا ، فهم غير متصلين بعصورهم ، وهم لذلك عاجزون عن التقدم والتطور ، أما الكتاب فيقرأون ويتعلمون ويتزيدون من القراءة والعلم ، ولا يرون الحياة الا قراءة وعلما . فهم لذلك متصلون بعصرهم يقرأون فتضطرهم القراءة الى التفكير ، ويتعلمون فيضطرهم العلم الى البحث وتنشأ لهم من هذا شخصية قوية ملاكها العقل والخيال والابتكار معاً ، ولست أقيم على ذلك دليلا معوجاً أو بعيد المنال ، وإنما ألفتك الى نفسك فأنت فى قراءة متصلة . وأنت لا تعرض لكتاب تنقده حتى تقرأه أو تقرأ أكثره وأنت لا تنقد هذا الكتاب حتى تقارن بينه وبين ما قرأته من أمثاله . فأما شعراؤنا فيقرأون فى السماء وفى السحاب ولكنهم لا يقرأون فى الكتب !

ولقد ترجم أستاذنا لطفى السيد أخلاق أرسطاليس فنقدته أنت ونقده العقاد ونقدته أنا ، وكلنا قرأ الكتاب كله أو أكثره فى العربية وفى الفرنسية أو الانجليزية أو اليونانية، وكلنا قارن بين الترجمة وأصولها ، وكلنا فكر فى فلسفة أرسطاليس وفلسفة أستاذه أفلاطون، وكنا حاول أن يقدر الأمد بين فلسفة أرسطاليس والفلسفة الحديثة، وكلنا حاول أن ينقد أو يقرظ عن علم وبصيرة . وتقدم لتقريظ الكتاب شعر شوقى وحافظ ونسيم ، وأنا أستحلف شعراءنا الثلاثة بخيالهم العزيز عليهم هل قرأوا ترجمة الأستاذ لطفى السيد أو أصلا من أصول هذه الترجمة ، بل هل قرأوا فصلا واحداً من الترجمة أو الأصل . أما أنا فاقسم ما قرأوا من الترجمة ولا من الأصل شيئاً . ولذلك أجتنب حافظ ونسيم موضوع الكتاب وفلسفة صاحبه وذهبا يمدحان لطفى السيد وأرسطاليس ، وللطفى السيد شخصية معروفة ولأرسطاليس شخصية معروفة . ويستطيع الشاعر أن ينسج حول هاتين الشخصيتين ألفاظاً حلوة خلابة لاتخلو من ضخامة ولا تبرأ من فراغ : فأما شوقى فأراد أن يمتاز فعرض للفلسفة ولفلسفة أرسطاليس، ولكنه لم يستقها من مصادرها كما يفعل العلماء ، لأنه لايجب أن يقرأ ولا يليق

به أن يقرأ وكيف يقرأ وله خيال يستطيع أن يصعد فى السماء فيرى فلسفة أرستطاليس فى الجوزاء، وفلسفة أفلاطون فى الثريا وفلسفة سقراط فى المريخ، فيأخذ من هذه الفلسفة مايشتهى ؟ وقد صعد خياله يومئذ فى السماء وتنقل بين الكواكب السيارة والثابتة، ثم تنزل الينا بفلسفة أضافها الى أرستطاليس فاذا هى فلسفة أفلاطون وقد نبهته الى ذلك يومئذ (فى السياسة) فغضب وغضب أصحابه وأنصاره وتحدث بعضهم بأن شوقى لم يخطىء وانما أخطأ أرستطاليس! وكيف لا وخيال الشعراء وخيال أميرهم بنوع خاص أصدق من فلسفة الفلاسفة ومن فلسفة المعلم الأول نفسه ؟ ولو أنك قرأت شعر شوقى أو شعر حافظ أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين، والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه العلة الا فى أن شعراءنا يسرفون فى الكبرياء فيؤثرون الجهل على العلم والكسل على العمل، ويقرأون فى الفضاء بدل أن يقرأوا حيث يقرأ الناس، وهل كان فيكتور هوجو أو لامارتين من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا ؟ كلا إن الشعراء الغربيين كشعراء العرب القدماء، يتصلون بعصورهم اتصالا متينا، يقرأون ويدرسون ومنهم الطبيب ومنهم الطبيعى ومنهم

صاحب الكيمياء ، ومنهم من يتصرف فى فنون العلم المختلفة .

مثل شعرائنا كمثل علماء الدين عندنا ، شعراؤنا يكتفون بخيالهم ، ويعتمدون عليه وحده فينوء بهم هذا الخيال ، ويعجز عن أن يرتفع فى الجو ، ويصبح من العقم بحيث ينتج هـــذا الشعر الجامد الذى تقرؤه . وعلماء الدين يكتفون بكتبهم القديمة ، ويحملونها كل شىء فتثقل بهم ويصيبهم العقم والفساد ، بينما شعراء الغرب وعلمـاء الدين فى الغرب يقرأون ويتعلمون ويتصرفون فى الفنون ، فهم علماء قبل أن يكونوا شعراء وقبل أن يكونوا قسيسين .

وظاهرة الكسل هذه التى نجدها عند الشعراء ، والتى تفسد عليهم الشعر تنتقل منهم بطريق للعدوى - فيما يظهر - إلى القراء فيصيبهم الكسل هم أيضاً ، يصيبهم هذا الكسل العقلى فيفسد عليهم ذوقهم الأدبى ، واذا هم يحبون هذا الشعر ويكلفون به بل يكتفون به بل يعجزون عن أن يسيغوا أى شعر آخر ، فيه أثر ما من آثار الحياة العقلية القوية . مثلهم فى ذلك مثل الرجل الذى عود معدته لوناً أو ألواناً من الطعام اليسير السهل الذى لا يغذى ولا يجهد ، فاذا اضطر الى لون آخر من ألوان الطعام فيه شىء من دسم أو غذاء لم يسغه ، فان أساغه لم يهضمه . ومن

هنا لايميل قراؤنا الى هذا الشيء القليل من الشعر القيم ، الذى يظهر فيه أثر العقل كما يظهر فيه أثر الخيال ، فيجب أن نكون منصفين ، وأن نعترف بأن من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله فى شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لايجدون من قرائهم تشجيعاً ، ولا يرون من أقرانهم الشعراء الا حسداً وحقداً وحرباً شعواء ، تعلن عليهم جهراً مرة ومن وراء ستار مرة أخرى . وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين أذكر فى مصر منهم خليل مطران والعقاد . وفى العراق معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى ولكن كثرة القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقى وحافظ وهى تؤثر هذا الشعر لأن حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما أن يذعنوا لهؤلاء القراء ليروج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم ، وإما أن لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا فى مذهبهم الشعرى لأنهم يقولون الشعر لأنفسهم قبل أن يقولوه للناس ، ومن الذين يذعنون للقراء فيسيئون الى أنفسهم والى الشعر ، ويؤخرون تطور الشعر تأخيراً عليهم إثمه : مطران فانا أعرفه من أشد الناس ميلا الى القراءة والدرس ، ومن

أحرصهم على أن يكون شعره مظهراً لعقله وخياله معاً. وقد قرأت له شعراً أشهد أنى لم أقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس ببهرج اللفظ وزخرف الأسلوب. ولكنه يحس من قرائه فتوراً، ومن أقرانه إعراضاً وازدراء وأزوراراً فيجارى أقرانه ويقول من الشعر مثل مايقولون، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون. ومن الذين لا يحفلون باعراض القراء وكيد الخصوم، وانما يمضون فى طريقهم جادين لا يلوون على شىء لأنهم يؤمنون بمذهبهم فى الشعر ويتخذون من هذا المذهب لهم فلسفة أدبية عباس العقاد وجميل صدقى الزهاوى، قد لاتعجبنى أحياناً صورهما اللفظية، وقد يقصران أحياناً عن الاجادة اللفظية الممتعة، ولكن خصومها يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون، دون أن يوفقوا الى اثبات أننا حين نقرأ شعر هذين الرجلين لا نقرأ كلاماً فارغاً ولا نخرج منه كما دخلنا فيه، وانما نرى فيه شخصية لها وزن وقيمة وعقلية تفكر وتعرف كيف تعلن تفكيرها الى الناس.

فأنت ترى أيها الصديق أن ظاهرة الكسل العقلى تظهر أولا عند الشعراء، ثم تنتقل منهم الى القراء ثم تعود من القراء الى الشعراء، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معاً، وتحول

بين هذا الفن الأدبى وبين حقه من التطور والتحديد .

وقد أنستنى هذه الملاحظة أو كادت تنسينى الملاحظة الثانية التى ألاحظها على مقالك القيم ، فأنت مصيب حين تلاحظ أن الشعر فى العصر العربى كان كل شىء فى الأدب العربى . ولكنى أخشى أن يكون إطلاق هذا الحكم مبعداً لك بعض الشىء عن الصواب . فقد كان للعرب العباسيين نثر ، وكان لهم نثر قيم . وليس ذنب العرب أننا لم نقرأ هذا النثر ولم ندرسه كما قرأنا الشعر ودرسناه ، وانما ذلك ذنبنا نحن ! وأحسب أنك لو عنيت بأدب العصر العباسى عناية صالحة لغيرت رأيك بعض الشىء فى النثر ، ولوافقتنى على أن الشعر كان ظاهر المكانة فى الأدب العباسى ؛ ولكن النثر لم يخل من جمال ورونق فنى صحيح . على أن الآية قد انعكست الآن فأصبح الأدب العربى الحديث نثراً كله وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلى فناً عرضياً ، لا يحفل به الا اللهو والزينة والزخرف ، فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب الى شوقى قصيدة فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت دار العلوم أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون طلبت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد فنظموا لها القصائد . واذا

مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والرثاء فنظموه كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقى أو حافظ ، كما أننا لا نتصور عيداً أو مأتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن ، فأما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهراً من مظاهر الجمال الطبيعى ، الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء ، فلا تلتمسه عندنا ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها ، فربأوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة .

وأنت أيها الصديق دعوت الى الاحتفاء بتاجور حين مر بمصر ، وكنت قوام هذا الاحتفاء وأنت لم تحتف بتاجور الا لأنك قرأت شعره فأعجبك وراقك ، كما يعجبك ويروقك شعر النابهين من أهل أوروبا القديمة والحديثة . أفترى أن لتاجور ديواناً أو مجموعة قصائد وقفت على المدح والرثاء وافتتاح المصارف والاحتفال بالمدارس؟ الست تلاحظ أن شعر تاجور شعر انسانى ، وأن شعر شعرائنا شعر أشخاص

وظروف ؟! ولتاجور فلسفة كما للمعرى والمتنبى فلسفة ، فاين فلسفة شوقى أو حافظ أو البارودى أو مطران ؟! وتاجور ترجم شعره الى اللغات الأوروبية فأصبح شاعراً عالمياً يكبره الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر شوقى أو حافظ الى الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية يقرأ ويعجب ويخلب العقول ويضمن لأصحابه جائزة نوبل كما ضمنها لتاجور ؟ كلا ! وليس مصدر ذلك الا أن تاجور لا يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وأن أصحابنا لا يلتمسون شعرهم فى العالم الحقيقى المعقول ، وانما يلتمسونه فى هذا الدخان الذى يرسلونه من افواههم حين يدخنون السجاير أو الشيشة :

وأرانى قد أطلت عليك ولا أقول أطلت على القراء ، فأنا لم أكتب للقراء وانما كتبت اليك أنت . وأكبر ظنى أنك ستذيع هذا الكتاب ، فأنت فى حل من ذلك ان شئت . أن كنت أوثر أن تستبقيه لنفسك . ولكنى ألح عليك إن اعتزمت نشر هذا الكتاب ألا تمسه بتغيير أو اصلاح ، فأنا من أشد الناس بغضاً لهذا النوع من التغيير والاصلاح . وأنا أحب أن يعرفنى الناس كما أنا ، لا كما تحب أنت أن يعرفونى أو ثر أن

يعرفنى الناس كما أنا فيكرهونى على أن يعرفنى الناس كما تريد أنت فيحبونى . وأنا أهدى اليك تحية ملؤها المودة الصادقة .

— ١٣ —
الرثاء فى شعر حافظ

رحم الله حافظاً ! ما أرى أن الذين سيعرضون لرثائه من الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان يبلغه هو حين كان يعرض لرثاء الأعلام الذين كان يفقدهم هذا البلد من حين إلى حين !

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها إجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كأشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج . وكانت إلى ذلك وفية رضية لا تستبقى من صلاتها بالناس إلا الخير ، ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه للناس مثلا يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت الى هذا وذاك ترى ديناً عليها ، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس ، وإنما أقول للفن والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا تحس معروفاً إلا أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون الى أنفسهم أو

الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون الى حافظ نفسه ! وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه أن يشكر للمحسن إحسانه ، ويسجل لصاحب المعروف معروفه ، مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما يكن موضوعهما ! فهذا أحد الأمرين الذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضيّ كريم . فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هـــذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا .

رحم الله حافظاً ! لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الانسانية كلها فى كثير من الأحيان تعيش فى هذا الرجل ، تحس بحسه ، وتألم بقلبه ، وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن والذين كانوا يقرأون شعره فى حياته ، والذين كانوا يستمعون له إذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصـــة والمجامع العامة ؛ يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة

الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من بأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ، وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع الكوارث من نفسه أشدّ وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة من الألم والحسرة ، ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن ينطق لسانه بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد فى غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التى لا يصل اليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون الظروف قد واتتهم وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين . وهى أن يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون لهم مثل ما فى أنفسهم من الحزن واللوعة ، ومن الحسرة والأسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا فى هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ، ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره ، ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة فى ضرب الأمثال

السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه فى القلوب ، وما يلذ الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ، هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم فى الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثى لأنه يحزن ، وكان يحزن لأنه يحب ، وكان يحب لأن الله قد وهبه نفساً رضية مؤثرة لم تبرأ من شىء قط كما برئت من الأثرة ، وكما برئت من الضغينة والحقد .

كان حافظ ينتهى من حب أصدقائه الى حيث لا يقدّر أن بينه وبينهم فرقاً ، الى حيث يراهم جزءاً من نفسه . وكان حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحس بحسه ويشعر بشعوره ، فكان إذا رثى علماً من أعلام مصر كأنما يرثى نفسه أولا ، وكأنما يرثى أمته ثانياً . وقد أتيح لحافظ أن يكون صديقاً وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم وشقيت

بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة أتيحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنى حدثتك عن وفاء حافظ وإيثاره وزهده فى متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق اللهجة ، وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره من الشعراء المعاصرين .

أراد قدامة فى أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع للشعر أصولا ونظما ، لايجوز للشعراء أن يتعدوها ويخرجوا عنها . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من بعده أن الرثاء والمدح فن واحد فى حقيقة الأمر ، وأن الفرق بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحىّ ، وأن مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ إلى الفعل الماضى فحكى عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحىّ لجأ إلى الفعل المضارع أو الى ما فى حكمه من أنواع الجمل فقال هو كريم أو أنت كريم وما يشبه هذا ، ولم يهتد قدامة وأصحابه فى الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار ، أو قل إنهم لم يهتدوا إلى شىء ، فان العواطف التى تبعث على الرثاء غير العواطف التى تبعث على المدح قوام تلك

الحزن واليأس ، وقوام هذه البهجة والرجاء . وقد يكون الاعجاب مشتركا بين الرثاء والمديح . ولكن قلما يكون الاعجاب وحده مصدراً لمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو رهبة ، أو أمل أو حسرة ، أو لوعة أو قنوط . وأكبر الظن أن كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودى وحافظ فى الشعر ويحيون فيه سنة للقدماء لا يزالون يرون المدح والرثاء كما كان يراهما قدامة وابن رشيق وغيرهما من النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح للأموات . وكان حافظ ـ رحمه الله ـ فى أول عهده بالشعر يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها . فأنت إذا قرأت رثاءه لبعض الأباطين فى الجزء الأول من ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى ، ولم تجد فى هـذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة ، وانما أحسست كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها ، فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى الغلو السقيم أحياناً وكأنه لم يدفع الى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة المحزونة . وإنما دفع اليه بمجاملة أصدقائه من الأباطين ، فانظر

الى هذه الداليه مثلا ، فسترى أن حافظاً رحمه الله قد كان فيها عيالا على دالية أبى العلاء التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

أخذ معنى من معانيها فجعلى يطوّله ويمد فيه ويقلبه على وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيها الثرى إلام التمادى بعد هذا أأنت غرثان صادى؟
أنت تروى من مدمع كل يوم وتغذى من هذه الأجساد !
قد جعلت الأنام زادك فى الدهـــر وقد آذن الورى بالنفاد !
فالتمس بعده المجرة ورداً وتزود من النجوم بزاد !

فانظر الى هذين البيتين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه بمبالغة الناشئين فى الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل على شىء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب أكل الناس حتى كاد يأتى عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها ، وينصح له أن يلتمس شرابه فى المجرة وطعامه فى النجوم ؟ وحافظ يمضى فى التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبى العلاء :

خفف الوطأ ما أظن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـــد هوان الآباء والأجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور فى أكثر القسم الأول من شعر حافظ، لا فى الرثاء وحده بل فى فنونه الشعرية كلها ، فحافظ لم ينشأ شاعراً وانما اكتسب الشعر اكتساباً وأنفق حياته كلها فى تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكد تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التى أشرت اليها والتى قضت له بالتفوق فى الرثاء. فانظر اليه حين رثى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : كيف غلبت طبيعته صناعته؟ وكيف تحدث قلبه وايمانه الى قلوب المسلمين وإيمانهم ؟ وكيف انتقل حزنه ووفاؤه الى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء؟ وهو على ذلك لم يخلّ بأصول الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن الى شعره سبيلا :

سلام على الاســـلام بعد محمد
ســـلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى
على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادِيَ الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى !
فوا لهفى والقبر بينى وبينـــه
على نظرة من تلكم النظرات !
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حِيال القبر فى عرفات
لقد جهلوا قدر الأمام فأودعوا
تجـــاليده فى موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا
بخير بقاع الأرض خير رفات

فى لفظ هذه الأبيات من الروعة والرصانة ما عرفناه فى شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الأبيات مألوفة شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار . ولكن فى الأبيات مع ذلك شيئاً لا أدرى ماهو ! يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى. بل أنا أدرى ماهو : هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه ، نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله . ثم انظر الى هذا الجزع العظيم ، كيف تصور كأنه طوفان مهلك

يغمر كل شيء ويأتى على كل نفس ، حتى فزع الشاعر منه وقد ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك فى الدنيا بغير حماة !
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات

ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع والقنوط المميت :

مددنا الى «الأعلام» بعدك راحنا
فردت الى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا
فعدن وآثرن العمى شرقات

ولو أنى ذهبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت منها بيتاً واحداً فكلها جيد ، إما لجدة المعنى وإما لرصانة اللفظ وإما لصدق اللهجة ، وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات . وانظر الى هذه الأبيات التى وصف فيها حافظ حزن الشرق على الأستاذ الأمام ، وهى الآن أصدق ما يقال فى حزن الشرق على حافظ نفسه :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات !

ولست أقف عند ما فى هذه القصيدة من وصف للاستاذ الأمام من نواحيه المختلفة ، لا لأنى عجل بل لأنى أكره أن أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ . ولكنى أحب أن تقرأ معى هذه الأبيات التى ختم بها حافظ رثاءه للأستاذ الامام لتتمثل مافيها من الحزن الصادق والاعتراف بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم على شكر من أحسن اليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلا فى عين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغم عداتى

دعائمه التقوى وآساسه الهدى
وفيه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المغانى ، مقفر العرصات ؟
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا
تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهى لا تستمد خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده ، وانما تستمد هذا الخلود من الرجلين جميعاً . فقد كانت حياة الأستاذ الامام شيئاً رائعاً ، واستطاع حافظ أن يعطى منها صورة رائعة . وما أكثر ما قال الشعراء فى الأستاذ الامام بعد موته ! ولكنك تستطيع أن تقرأ هـذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن الجميل ، وستجد منه المتوسط وستجد منه الردىء دون أن تظفر بمثل هذه القصيدة روعـة وجمالا وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود .

ورثى حافظ أستاذه البارودى فيمن رثاه من الشعراء

فوفق الى جودة اللفظ ورصانته ، ووفق الى احياء الأسلوب القديم فى رثاء هو بالمدح أشبه . ولكنه على ذلك لم يبلغ أن يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . ومع أنه لم يكن يريد الصدق فى أول هذه القصيدة حين يقول :

ردوا على بيانى بعد محمود
انى عييت واعيا الشعر مجهودى
ما للبلاغة غضبى لا تطاوعنى
وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك انه قد صدق وقال الحق فعي واعى الشعر مجهوده ، وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد فى داليته المشهورة :

« لاتدع بى الشوق انى غير معمود »

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظاً تهيب إمام الشعراء ميتاً كما كان يتهيبه حياً ، واعتقد انه مهما يقل فى البارودى فلن يبلغ من رثائه مايريد، ففلّ ذلك من حده وفتّ فى عضده وقصر به عن غايته . ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودى لم يكن رزءاً شعبياً أو لم يره الناس كذلك فى وقته وانما كان رزءاً للادباء وابرع ما يكون حافظ فى الرثاء حين يصور

حزن الشعب وألمه . لذلك جاد كل الاجادة فى رثاء الاستاذ الامام وفى رثاء مصطفى كامل لأن الاول كان فقده رزءاً فى عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية ولأن الثانى كان فقده رزءاً فى عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ فى رثائهما ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ فى تصوير آلام الشعب اكتسبت شعره السياسى ورثاءه لأصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الأعاجيب

انظر الى قوله فى رثاء مصطفى كامل :

انى ارى وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظم
ارى جلالا ، ارى نوراً ، ارى ملكا
ارى محيـــا يحيينا ويبتسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه

فنحن فى موقف يحلو به القسم

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا

ونستعد ونستعدى ونحتكم

ألا ترى الى هذه الابيات ، وكيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة ، وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الأول الذى خرج فيه عن طوره العادى وأخرج الناس معه عن أطوارهم، وهيأهم لموقف غير مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعاً ويملأ قلوبهم هيبة وإجلالا بهذا البيت الذى ألفه من جمل منقطعة قصيرة وختمه بصورة خلابة رائعة :

أرى جلالا أرى نوراً أرى ملكا

أرى محيـــاً يحيينا ويبتسم

ثم انظر اليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه

هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر إليه بعد ذلك وقد أكد الجمهور وأنساه نفسه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذى تملؤه المهابة والروعة والحب معاً فيقول :

غضوا العيون وحيوه تحيته

من القلوب اذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها ايمان وطاعة ويقين واعجاب .

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرستطاليس صاحب الخطابة ومنشئ علم البيان لما تردد فى أن يتخذها مثلا لما يسميه فى الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشئ تحت العين .

ورثى حافظ قاسماً فلم يكن فى رثائه اياه شعبياً ولا شاعر جمهور بالمعنى الذى نراه فى رثائه للاستاذ الامام ولمصطفى كامل، وانما كان انساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن

ومصرياً مشفقا على مصر من هذه الأحداث التى تلم بها سراعا فتنتزع أعلامها انتزاعا ، انظر الى قوله :

مالى أرى الأجداث حالية
وأرى ربوع النيل فى عطل
فاذا الكنانة أطلعت رجلا
طاح القضاء بذلك الرجل
أو كلما أرسلت مرثية
من أدمعى فى إثر مرتحل
هاجت بى الأخرى دفين أسى
فوصلت بين مدامع المقل
وان خاننى فيما فجعت به
شعرى فهذا الدمع يشفع لى

وانظر إلى هذه الأبيات والى ما أدرك الشاعر فيها من المعنى الخصب الكثير فى اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا
يشقى الأبى بصحبة الوكل
لهفى عليك قضيت مرتجلا
لم تشك ، لم تستوص ، لم تنل

غالى القضاء يد القضا فـــذا
يبكى عليك ، وذاك فى جذل

وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان فى ذلك مصورا (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من المستنيرين فى ذلك العصر كانوا يرون رأى قاسم ، ولكنهم يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر الى الأيام تقضى فيه بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

ان رأيت رأيا فى الحجاب ولم
تعصم فتلك مراتب الرســـل
الحكم للأيام مرجعـــه
فيما رأيت فنم ولا تســـل
وكذا طهـــاة الرأى تتركه
للدهر ينضجه على مهـــل
فاذا أصبت فأنت خـــير فتى
وضع الدواء مواضع العلـــل
أولا فحسبك ما شرفت به
وتركت فى دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم فى نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأى فيها ، ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون بلقائه وحديثه الحلو وأدبه العذب فقال هذه الأبيات التى تفيض حزناً وأسى ، وتملأ نفوسنا حزناً وأسى كلما قرأناها . وأينا لا يجد نفسه فى هذه المنزلة التى وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم فذكر حافظ به موت الذين سبقوه ولقد مات أصدقاء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسما ومات حافظ الآن فحزنا لموته ، ونحن نذكر به موت اصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله ان يجعل قلوب الأحياء قبوراً لأصدقائهم الذين يسبقونهم الى الموت ، ومن خير ما فى هذه الأبيات يأس حافظ مما انتهت اليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء . ومما انتهت اليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون ، والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نردده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها ، فليس مصر بالبلد الذى يمكن ان يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

اذا مات منـــا سيد قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

وانما يمضى الزعيم او المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً وينساه الناس ولايذكره منهم الا الأقلون .

قال حافظ :

واها على دار مررت بها ... قفرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية ... وذكرت فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن قاسم فأبت ... رد الجواب فرحت فى خبل
متعثرا ينتابنى وهن ... مترنحاً كالشارب الثمل
متذكرا يوم الامام به ... يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل ... تحت التراب بقية الأمل
جاور أحبتك الألى ذهبوا ... بالعزم والاقدام والعمل
واذكر لهم حاج البلاد الى ... تلك النهى فى الحادث الجلل
قل للامام اذا التقيت به ... فى الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفا ... للراكبين مراكب الزلل
لله أثار لكم خلدت ... صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت ... طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو انها بقيت ... أوان ظلا غير منتقل !

أترانا نحمل حافظاً رحمه الله شيئاً غير هذا لو أردناه على أن يصور لأصحابه الأكرمين حال مصر بعد أن تركوها !

ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الامام والى قاسم ومصطفى كامل والى سعد وثروت ؟ بلى ، لقد قلت لك انى لا أرى ان الذين سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها .

على أن لحافظ رثاء تقليدياً أوقل رثاء أضطر اليه اضطراراً للمجاملة ، أولأن مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذى قاله فى بعض الأباظيين والذى أشرت اليه منذ حين ، وكقصيدته التى يعزى بها الانجليز عن فقدهم لملكتهم فيكتوريا ، ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة الشعر فأجاد اللفظ ووفق الى معان حسان ، منها المبتكر ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب وان استطاع ان يثير الاعجاب ، وربما كان رثاؤه لرياض باشا أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذى بكى فيه الشاعر بلسانه وعقله ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يقلد فيها القدماء ولكنه لم يحققها ولم يمحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق والتمحيص لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى

نفس السامع والقارىء ، وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعنيهم التحقيق ولا التمحيص، ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال، فحافظ يجرى الدموع أنهاراً ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه الدموع الجارية تستطيع ان تحمل الفقيد الى قبره وحافظ يؤجج الأنفاس ناراً ويخيل الى نفسه والى الناس أن هذه النار تستطيع ان تحرق المشيعين لولا مايقاومها مع الدموع . وحافظ كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من المجرة ويأكل من النجوم . وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وان يلقى ضيفه جاثياً . وقد سألته رحمه الله ذات يوم كيف تتصور القبر جاثياً ؟ فقال دعنى من نقدك وتحليلك، ولكن حدثنى أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ قلت بلى ولكن . . قال دعنى من لكن واكتف مثلى بهذا .

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعي فى هذا العصر ؛ فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطبع الخيال ويضطر الى المحال

ولكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق ، ولا يعبث بها ، وانما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث فى رثائه وشعره السياسى ، كما كان مصوراً متقناً للنفوس .

رحم الله حافظاً ! ان فصلا قصيراً كهذا الفصل لايسع رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغى أن يكون النقد والتحليل . وانى لأرجو أن نبلغ من ذلك مانريد فى الكتاب الذى سيهيأ الآن لدرس شاعر النيل .

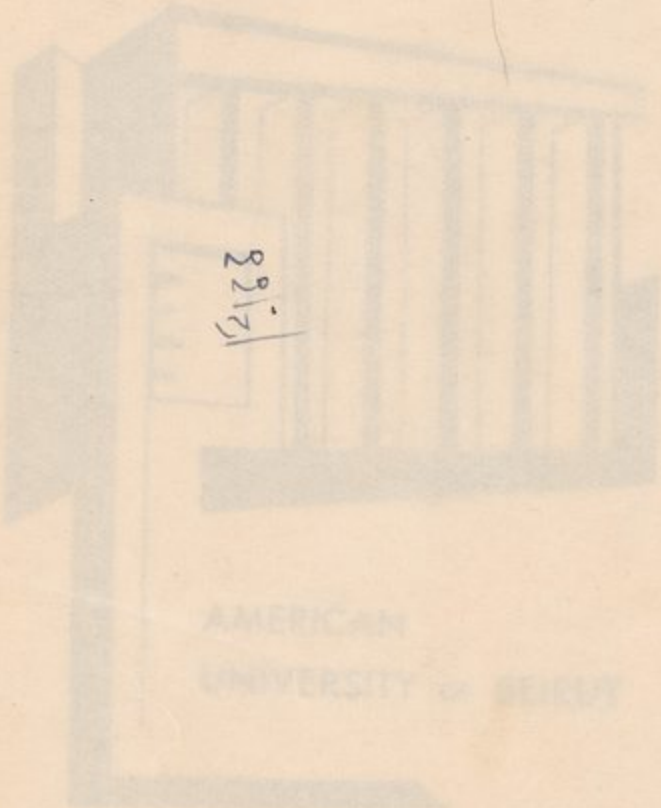
AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

808.1:H96haA:c.2
حسين، طه
حافظ وشوقي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031799

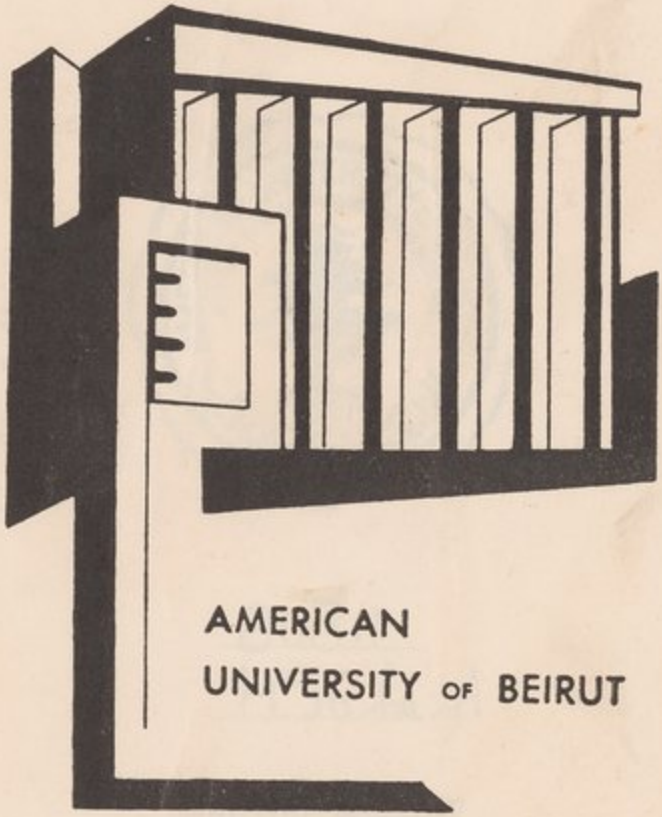

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.7109
Ha3924h2A